

روايات مصرية للجيب
زهور
٢٠
حب وسط النيران
Looloo
www.dvd4arab.com
شريف شوقي
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

اهـــداء

إلى تلك المناضلة فى جنوب (لبنان) ، التى ضحت بحياتها إيماناً بقضيتها ، وإخلاصاً لوطنها المعتدى عليه ، أشرف تضحية وبطولة ..

إلى العروسين ، اللذين أقاما عُرْسَهما وسط موجات العنف والدمار ، التى أحاطت بالمخيمات الفلسطينية ..

إلى أولئك الرجال الباسلين ، الذين يقاتلون دفاعاً عن قضيتهم ، وإخلاصاً لها ، على الرغم من كل ما يحيط بهم من معوقات وظروف قاسية ..

إلى كل من أوحى إلىَّ بفكرة هذه القصة ، أهدى روايتى ، التى تروى كيف يمتزج الحب بالإخلاص للوطن ، فيسمو كلاهما إلى أرفع الدرجات؟

المؤلف

١ ــ لقاء فى الجنوب ..

أصرَّ (وليد) على الهبوط من السيارة ، التى أقلته من (بيروت) ، إلى بلدة (الناقورة) . فى جنوبىّ (لبنان) ، قبل أن تصل إلى هدفها . فقد أراد أن يقطع الخطوات الباقية ، إلى منزل الشيخ (سالم) سيراً على الأقدام ، بعد أن جذبه حنين الماضى ، ودفعه الهواء النقى ، والنسمات العليلة . إلى أن يعيد ما كان يفعله منذ ثمانى سنوات مضت . حينما كان يغادر سيارة والده . ليقطع الأمتار الباقية على قدميه ، مع مقدم الربيع ..

كان يشعر دوماً بتآلف عجيب . بينه وبين الطبيعة فى هذا المكان . فمنذ حداثته وهو يميل إلى الأماكن المفتوحة . والأفق الممتد الطليق ..

ربما بسبب أعوامه الأولى ، التى قضاها فى مخيمات

ملحوظة : شخصيات وأحداث هذه الرواية من محض خيال المؤلف ، وإن كانت فى جوهرها مستوحاة من إحدى البطولات الحقيقية ، التى يمارسها أولئك المناضلون ، فى صمت وإصرار .

اللاجئين ، حيث المنازل الصغيرة الضيقة ، والخيام الرثة ، وحكايات البؤس والشقاء ، التى تغلق بأحزانها حتى الهواء ، الذى كانوا يتنفسونه هناك ..

كم كره هذه المخيمات ، وذلك الإحساس المبكر بالقهر والمهانة والذل ، الذى نما فى أعماقه مع نموّ جسده وروحه ..

كم كره ذكريات الماضى ، التى لا يكف العجائز عن ترديدها ، وأمنيات المستقبل ، التى لا يملون الجهر بها ، دون أن يعترفوا بأنها مجرد أوهام لن تتحقق ..

كره أن ينعت بأنه لاجئ ، شريد .. بلا وطن أو هوية ..

وعندما مضى به العمر ، وتبدلت أحوالهم ، بعد وفاة عمه فى (أستراليا) ، وتركه لهم ثروة كبيرة ، مكنتهم من الانتقال إلى منزل فاخر ، كمنازل أثرياء التجار والمزارعين فى (لبنان) ، حاول أن ينفصل عن ذلك الواقع ، الذى كان يحياه ، ويرفضه ..

حتى عندما انتقل إلى (بيروت) ؛ ليستكمل دراسته

كان يتجاهل دوماً الحديث عن تلك الفترة ، التى قضاها فى مخيمات اللاجئين ، وكأن تاريخه يبدأ مع انتقال أسرته إلى منزل (العزازى) ، الذى ابتاعه والده ، فصار يعرف باسم منزل الشيخ (سالم) ..

كان يسبح فى خياله ، الموزع ما بين ذكرياته ، وجمال الطبيعة من حوله ، حينما استعاد انتباهه إلى الحاضر فجأة ، على نحو لم يتوقعه ، حينما اصطدمت به دراجة ، وأوقعته أرضاً ، فلم يشعر إلا وهو مستلق على ظهره ، وفوقه راكب الدراجة ، والدراجة نفسها ، وقد تناثرت حولهما ثمار التفاح وحبات وعناقيد العنب ، التى كانت تحويها سلة الدراجة .

وهمَّ (وليد) بأن يهتف بعبارة ما ، بعد أن استرد جأشه ، وتبخر منه أثر المفاجأة ، ولكن نظرة واحدة إلى وجه سائق الدراجة ، دفعت فى أعماقه بمفاجأة أشد هولا ، احتبست لها الكلمات فى حلقه ، وتجمدت لها ملامحه ومشاعره ، فلم يكن سائق الدراجة سوى فتاة ..

فتاة رائعة الجمال ، تهدّلت خصلات شعرها

الأسود الناعم على جبينها ، بعد أن سقطت (الحطة)[٥]
التى كانت تحيط بها رأسها ، وانسدلت على عنقها ،
كاشفة عن وجه فاتن وضّاء ، لا يقل بهاؤه عن ذلك
التعبير المرتسم فوقه ، والذى ينذر بالتحفز والعصبية .
وهى تزيح درّاجتها ، وتعتدل واقفة ، قائلة :

— إياك أن تدّعى أننى المخطئة ، فأنت الذى
اندفعت إلى وسط الطريق ، فى شرود كامل .

تصنّع (وليد) الضيق والجدّيّة ، وهو يقول :

— أنتِ أيضاً مخطئة ، فما كان ينبغى أن تقودى
الدرّاجة بهذه السرعة وأنت تخرجين من طريق جانبى ،
ثم من سيعوّضنى عن ثيابى ، التى اتسخت وتمزقت ؟

قالت فى عصبية :

— أهذا هو كل ما يعنيك ؟.. وماذا عن فاكهتى ،
التى تناثرت أرضاً ؟ .. من سيردّ لى ثمنها ؟

---

(٥) الحطة : غطاء الرأس الذى يستخدمه الفلسطينيون ، وهو
أشبه بالعقال العربى .

فجأة توقفت الكلمات فى حلقها ، وتلاشى غضبهما ،
لتحل محله الدهشة . ثم هتف هو :

— أنت ؟!

هتفت بدورها ، وهى تشير إليه بسبابتها :

— وأنت ؟! أنت ؟!

برقت عيناه ، وملأتهما تلك الابتسامة ، التى
تألقت على وجهه ، وهو يهتف :

— أنت (سلمى) ، ابنه الحاج (نور الدين) .

هتفت ، وهى تصفق بكفّيها فى مرح :

— وأنت (وليد) ، ابن الشيخ (سالم عبد الكريم) .

هتف ، وهو يتأملها غير مصدق :

— لقد تغيرت كثيراً يا (سلمى) .. أصبحت
فتاة ناضجة ، تمتلئ جمالا وأنوثة وفتنة .

واكتسى وجهها بحمرة الخجل ، وهى تطرق به
أرضاً ، مغمغمة فى حياء :

— إننا لم نلتق منذ ثمانى سنوات . وكنت لا أزال
طفلة فى الثالثة عشرة من عمرى — حينذاك — ألا تدرك

الفارق بين طفلة فى هذه السن ، و فتاة فى الحادية و العشرين من عمرها .

تفحّصها فى إمعان زادها خجلا ، وهو يقول :

— فارق كبير ولا شك ، فشتّان بين طفلة نحيلة ، تتعثر فى خطواتها بضفائرها المعقودة ، وفتاة ناضجة فاتنة مثلك .

فرّت بخجلها منه ، وتظاهرت بجمع ثمار الفاكهة ، وإعادتها إلى السّلة ، فأسرع هو يعاونها ، وهو يختلس النظر إلى وجهها الفاتن الصبوح ، مشدوهاً ، مبهوراً بذلك التحوُّل العجيب ، الذى طرأ على فتاة شاركته براءة الطفولة ، ومرح الصبا ، وهى بدورها تختلس النظر إليه ، وتتمعن فى وجه الشاب ، الذى لم تفارق صورته مخيّلتها ، منذ افترقا ..

هو بدوره صار مختلفاً ، فلم يعد ذلك الصبى المشاكس الذى عرفته ، وإن لم تختلف صورته كثيراً ، عن تلك الصورة التى رسمتها له فى خيالها ، طوال ثمانى سنوات ..

قوام ممشوق ووجه جاد ، وعينان يطل منهما تساؤل دائم ، وكأنما تسبح فيهما عشرات من علامات الاستفهام ، دون جواب شاف ، وجبين عريض ، يشف عن الذكاء ونبل الخلق ..

كم أحبت جبينه هذا فى الماضى ..

كم كان يحلو لها أن تشاكسه ، وتثير حنقه ، ليقطبه معبِّراً عن غضبه وجموحه ..

فجأة وجدت نفسها تقول :

— هل تعلم أن صورتك لم تختلف كثيراً عما تخيلتها ؟

ابتسم قائلا :

— هذا يعنى أننى كنت أحيا فى مخيّلتك دوماً .

— وكيف لا ؟ .. لقد كنت أقضى معظم وقتى فى داركم .

— كانت والدتى تحبك كثيراً ، وتعدُّك ابنتها .

— لقد أحزنتنى وفاتها كثيراً ، حتى شعرت وكأننى أفقد أمى للمرة الثانية ، ولقد أدهشنى أنك لم تحضر مراسم دفنها .

– لم أقو على ذلك .. كنت أحبها كثيراً . وخشيت أن أنهار ، أو أستسلم لليأس ، لو رأيتهم يوارونها التراب .. خشيت أن أدفن معها كل أحلامى وآمالى .

أثارت رنته الحزن فى صوته ، ومسحة الألم فى عينيه شجونها ، فقالت مديرة دفة الحديث :

– ولماذا لم تعد إلى (الناقورة) ، ولو مرة واحدة ، طوال كل هذه السنوات .

حمل سلة الفاكهة ، ليضعها على الدرّاجة ، قائلا :

– شغلتنى سنوات الدراسة ، وطموحات المستقبل فى (القاهرة) .

– هل أصبحت طبيباً ، تمتلك عيادة خاصة فى (القاهرة) ، كما قال الشيخ (سالم) ؟

– نعم .

– ولماذا لم تفكر فى افتتاح هذه العيادة هنا ؟

– أين ؟

– فى (الناقورة) .

– أنت تعلمين أن الأوضاع غير مستقرة فى

جنوب (لبنان) ، وتهددها الحروب الأهلية ، والمخاطر الإسرائيلية ، وهذا لا يمنح مناخاً صالحاً للعمل .

– على العكس .. إن الكثيرين يحتاجون إلى مثل مهنتك هنا ، خاصة لو كان هناك مستشفى صغير ، لرعاية سكان المخيمات .. إن العشرات من الأثرياء هنا على أتم استعداد ؛ لإنشاء مثل هذا المستشفى ، وعلى رأسهم والدك ، الشيخ (سالم) .

بدا الضيق على وجهه ، وهو يقول :

– طموحاتى تتجاوز هذا بكثير .. تتجاوز حتى عيادتى الطبية فى (القاهرة) .

تطلعت إلى وجهه فى حيرة ، وهى تقول :

– وما طموحاتك هذه ؟

ابتسم قائلا :

– سأخبرك بها فيما بعد ، أما الآن فسأتركك ؛ لأفاجئ الشيخ (سالم) بعودتى ، على أن نتقابل فى دارنا هذا المساء .

– لن يمكننى هذه الليلة .

– لماذا ؟ .. هل نسيتِ حينما كنتِ تتسللين إلى حديقة منزلنا كل ليلة ؛ لنلتقى ؟

– كنا أطفالا حينذاك .

– فلنعتبر أننا ما زلنا كذلك .

ضحكت قائلة :

– والدى لن يوافقك على مثل هذا الاعتبار الآن.

– إذن ، فلنلتق غداً .

– سأحضر مع أبى ولا شك ، لزيارة منزلكم ، والترحيب بك .. والآن وداعاً .

وامتطت درَّاجتها ، وهى تلوِّح له مودِّعة ، وهو يتأملها فى إعجاب ، لم يفارقه لحظة واحدة منذ التقيا ، ولم تكد تنطلق بها حتى هتف :

– حذار من الاصطدام بشخص آخر .

ألقت إليه بثمرة تفاح ناضجة من سلتها وهى تقول :

– إننى أعترف بالخطإ .. خذ هذه كتعويض مؤقت.

التقط التفاحة ، وأدارها بين يديه ، وهو يغمغم :

– سأقبلها .. سأقبلها كتعويض مؤقت ..

* * *

٢ ـ الجسد الحى ..

ألقى (وليد) نفسه بين ذراعى أبيه ، الذى استقبله فى فرح وترحاب بالغين ، وقد حرك هذا اللقاء مشاعر (وليد) الجياشة ، تجاه والده الشيخ (سالم) ، الذى يتمتع بقدر كبير من الاحترام والتقدير ، بين ذويه فى (الناقورة) ، بل بين معظم الفلسطينيين والعائلات اللبنانية فى الجنوب ، لما يتميز به من كرم وحكمة وصلاح ، ولما أبلت به عائلته ، فى سبيل الدفاع عن القضية الفلسطينية ، منذ موجات الهجرة اليهودية الأولى إلى (فلسطين) ..

أما بالنسبة لـ (وليد) ، فقد كان الشيخ (سالم) مثالا للأب الحنون العطوف ، الذى لم يبخل عليه يوماً بشىء ما ، حتى فى أيام الضنك الأولى ، التى كان يسعى فيها لتحقيق مطالبه ، على حساب نفسه ، وحساب الأسرة كلها ..

وقال الشيخ (سالم) لولده معاتباً :

— أخيراً تذكرت أن لك أباً ، وجئت لزيارته بعد ثمانى سنوات .

— سامحنى يا أبتاه ، كنت أكافح لتحقيق أحلامى ومستقبلى .

— أتعدُّ هذا عذراً كافياً ، لغيابك عنا طوال كل هذه السنوات ؟ .. لماذا يا ولدى ؟ .. إننى لم أعهدك جاحداً قاسياً .. كيف استطعت أن تفارقنا كل هذه الأعوام ؟

— إنك لم تغب عن عقلى وقلبى لحظة واحدة يا أبتاه ، ولكننى كنت أخشى العودة إلى هنا . بعد وفاة أمى ، ولم أجد فى نفسى الشجاعة ، لأعود إلى ديار فارقتها هى ، بعد أن كنت ألازمها كظلها ، وصدقنى لقد بذلت جهداً ضخماً ، لأستجمع شجاعتى ، وأتقبل واقعى الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، فها أنت ذا ترانى ضعيفاً ، عاجزاً عن مواجهة هذا الواقع .

قال هذا وانسالت العبرات من عينيه . فمسح والده دموعه ، وقال وهو يقوده إلى إحدى الأرائك :

— هذه إرادة الله يا ولدى ، وعلينا أن نتقبلها صاغرين راضين .. والآن حدثنى عن نفسك ، كيف أحوالك فى (القاهرة) ؟

— لقد أصبحت طبيباً متخصصاً فى الأمراض الباطنية ، وأمتلك عيادة خاصة فى (القاهرة) .

— عيادة خاصة ؟! .. ولكن هذا لم يكن ما أتمناه ، حينما أرسلتك لدراسة الطب !

— ليست هذه نهاية المطاف يا أبى ، إننى سأهاجر إلى (أستراليا) ، مثلما فعل عمى ، ولقد جئت خصيصاً لأصحبك معى ، أنت وعمتى ، بعد أن نبيع مزرعتنا هنا ، ولقد رتبت كل الأمور ، وسيمكننا أن نجنى هناك ثروة طائلة و ..

هبَّ الوالد واقفاً ، وارتسم الغضب فى ملامحه ، وهو يهتف فى ثورة :

— عن أية هجرة ، وأية ثروة تتحدث ؟ .. أهذه هى طموحاتك ؟ .. أهذا هو كل ما تفكر فيه ؟ ..

لو أن ما سمعته منك حقيق ، فكل ما فعلته ، وما تمنيته من أجلك ، قد ضاع هباءً منثوراً .

– أبى .. إننى أسعى لتأمين حياتنا ومستقبلنا و..

– أية حياة ، وأى مستقبل تحققه بعيداً عن أهلك ووطنك وذويك ؟

أطلق (وليد) زفرة حادة من أعماق قلبه ، وهو يقول فى مرارة :

– أهلى هم أنت وعمتى (جهاد) يا أبتاه ، أما عن الهجرة فلقد عشناها منذ البداية .. عشنا بهوية تقول إننا فلسطينيون ، بلا أرض أو مأوى .. هل يمكنك أن تخبرنى أى أرض تريدنى أن أحرص على التمسك بها ؟ .. أين هى ؟ .. (لبنان) أم (مصر) أم (الأردن) ؟ .. إننا لاجئون يا أبى .. فى أية دولة نذهب إليها نحن كذلك .. سواء استضافونا فى خيام ، أو فى قصور .. سواء أعطونا الثياب أو الأموال .. التعليم أو الوظائف .. إننا لاجئون ، إنها صفة مهذّبة للتشرّد .. ستكون لى هويّة فى (أستراليا) على الأقل .. سأحصل على الصفة

والوطن ، دون أن تلاحقنى دوماً صفة (لاجئ) .

اكتست ملامح الأب بالحزن والأسى ، وهو يقول :

– إذن فأنت تسعى للتملص من فلسطينيتك !!.. ليتك ما عدت ، وليتنى ما رأيتك .

– والدى .. إننى ..

قاطعه والده بإشارة صارمة من كفه ، وهو يقول :

– لقد كنت أحلم دوماً بعودتك إلى هنا ؛ لتفتتح عيادتك الخاصة وسط ذويك ؛ لخدمة الجرحى والمصابين من أبطال المقاومة ، الذين يضحون بحياتهم ، لاسترداد الأرض السليبة ، تمنيت أن ترتقى مهنة الطب بمشاعرك وأحاسيسك تجاه وطنك وإخوانك ، بدلاً من أن تعود إلىّ جاحداً :

– لست أول من فكر فى الهجرة يا أبى .. لقد فعلها عمى ، وحظى بالثروة التى نحيا فى خيرها الآن .

– لو أنك تتصور هذا فأنت مخطئ .. إن الثروة

التى تتحدث عنها هى جزء من الدَّيْن ، الذى يحق لى
عند عمك (رحمه الله) ، فقد هاجر هارباً ، بعد أن
سرق كل ما ادخرته من مال للمستقبل ، وجزءاً من
الأموال ، التى كنا نُسهِم بها فى عمليات المقاومة .
ولقد مات فى (أستراليا) شريداً ، بلا أهل أو هويَّة ،
لأنه حتى المهاجر لابد له من جذور ينتمى إليها : أما
عمك فسعى لاجتزاز جذوره ، فعاش حتى آخر أنفاسه
غريباً وحيداً ، وهذا ما تسعى أنت لتكراره .. إذا
أردت أن ترحل عنا فافعل وحدك ، أما أنا فسأبقى ..
سأبقى وسط أهلى وإخوانى .. قريباً من وطنى السليب ،
حيث تمتد جذورى ، دون أن أفقد الأمل لحظة فى
العودة إليها .. إلى (فلسطين) ..

قال كلماته ، وغادر الحجرة فى حزم ، تاركاً
(وليد) مطرق الرأس ، عاجزاً عن استيعاب ذلك
المنطق ..

منطق العودة إلى الوطن السليب ..

* * *

جلس (وليد) فى شرفة تطل على الحديقة ، يطالع
صحيفة اليوم ، وبينما هو يفعل ، امتدت يد من خلفه ؛
لتختطف الصحيفة ، فالتفت فى دهشة ، لتطالعه
(سلمى) بابتسامتها الخلابة ، ووجهها المشرق ، وهى
تقول ضاحكة فى مرح :

- لقد كنت تفعل ذلك فى طفولتنا ، ولقد حان
الوقت لأردّ لك الكيل .

ضحك وهو يقول :

- صباح الخير يا (سلمى) .

- صباح الخير يا (وليد) ، لقد ذهبت مع أبى
لزيارتكم ، فقيل لنا إنك عند العمة (جهاد) .

- وأين الحاج (نور الدين) ؟

- مع والدك ، بصحبة بعض الأقارب ، الذين
جاءوا للترحيب بك فلم يجدوك .

دخلت العمة (جهاد) فى هذه اللحظة ، وهى تحمل
صينية أكواب الشاى ، فأسرعت إليها (سلمى) ،
وهى تقول فى مرح وبساطة :

— دعينى أتولى ذلك عنك يا عمتى .

ابتسمت العمة ، وهى تقول فى حنان وإعجاب :

— حفظك الله يا (سلمى) .

لم تكن العمة وحدها ترمق (سلمى) بإعجاب ، فقد كان (وليد) يتابع خطواتها ، وعيناه تتألقان به ، وفى أعماقه كان يشعر بأن إعجابه بها ليس وليد الساعات القليلة الماضية ، فمنذ طفولتهما كان يفضلها على الجميع ويحب مشاركتها اللهو واللعب ، وحينما مرضت ولازمت الفراش ،ومنعه أهلها وأهله من زيارتها ، خشية إصابته بالعدوى ، كان يأتى إلى منزلها يوميًّا ، ويدور حوله فى حزن وأسى ، وعندما تماثلت للشفاء أهداها قطعة كبيرة من (الشيكولاته) ، دفع ثمنها مما اقتصده من مصروف جيبه ..

ولم تغب نظرات الإعجاب فى عينيه عن (سلمى) التى تورَّد وجهها خجلا، وهى تقدِّم له فنجان الشاى، قائلة :

— فيم تفكر ؟

— فيك .

— لماذا ؟

ابتسم ، قائلا :

— هذا أسخف سؤال سمعته فى حياتى ، فعندما يقول إنسان لآخر : إنه يفكر فيه ، ينبغى أن يسأله (على أى نحو ؟) ، وليس (لماذا ؟) ..

— على أى نحو تفكر فىَّ إذن ؟

أعاد فنجانه إلى الصينية ، وهو يقول فى حيرة :

— صدقينى أنا لم أصل لجواب هذا السؤال بعد ، فلست أدرى أأفكر فى (سلمى) ، الطفلة الصغيرة ، التى شاركتنى مرح الطفولة وشقاوتها ، أم (سلمى) الشابة ، التى بهرتنى بجمالها وجاذبيتها !

مازحته قائلة :

— أتغازلنى بأسلوب مستتر ؟

ثم اكتست ملامحها بالجدِّية فجأة ، وهى تستطرد :

— ماذا فعلت بوالدك يا (وليد) ؟

انتزعه السؤال من أفكاره الشاردة فى عنف ، فقال فى دهشة :

– والدى ؟ !

– نعم يا (وليد) ، لقد سمعت جزءاً من الحوار الذى دار بينه وبين أبى ، ومن الواضح أنه مستاء منك جداً .

– والدى أسير تطلعات مثالية يا (سلمى) ، وبرغم احترامى الشديد لأفكاره ، إلا أنها تتعارض ومستقبلى .

قال عبارته الأخيرة ، وهو ينهض ليقف مستنداً إلى سور الشرفة ، فنهضت (سلمى) من مقعدها ، واقتربت منه ، وهى تقول فى صوت خافت ، يحمل رنة العتاب :

– وهل تظن أن مستقبلك فى الهجرة إلى(أستراليا) ؟

– لقد خطَّطت ؛ لتحقيق طموحاتى العلمية والمادِّية هناك .

التفتت إليه ، وتطلعت إلى عينيه ، وهى تقول :

– وماذا عن طموحاتك الإنسانية .

– ماذا تعنين ؟

– أولئك البؤساء فى الخيام ، ألم تفكر فيهم يوماً ؟ ألم تشعر بحاجتهم إليك ؟

هزَّ رأسه ، قائلا :

– إن وكالة إغاثة اللاجئين تتولى رعايتهم صحيًّا .

صاحت فى حِدَّة :

– إنها تمنحهم الحدَّ الأدنى من الرعاية الصحية ، وأنت خير من يعرف ذلك ، فقد كنت وما زلت واحداً منهم ، لأنك فلسطينى .

أمسك ذراعها فى قوة ، وهو يقول فى غضب :

– إنك تتحدثين مثله .. فلسطينى .. فلسطينى .. ماذا أعرف أنا عن (فلسطين) ؟ إننى لم أولد بها ، ولم أتنسَّم هواءها يوماً .. لم أولد إلا فى تلك الخيام ، التى تتحدثين عنها ، حيث البؤس والفقر والهوان .. حيث لا وطن ولا هويَّة .. فقط شعور قاس، ولقب (لاجئ) .. إن (فلسطين) التى تتحدثين عنها ، يعرفها العالم أجمع الآن باسم (إسرائيل) ، ولن تجدى

اسم (فلسطين) هذا إلا على الخرائط العربية فقط ، دون كل خرائط العالم .. إننى أرفض أن أبقى مثل الآخرين ، مشدوداً إلى تلك الأرض ، التى نتطلع إليها من وراء الحدود .. إننى أرفض أن أحيا فى أحلام وهمية ، كتحرير الوطن ، واسترداد حتى جزء من الأرض .

ارتسم الأسى فى ملامحه ، وهو يكمل فى مرارة :

- إننى رجل واقعىّ يا (سلمى) ، درست الطب وأعرف حدود الجسد البشرىّ .. أعرف متى يكون سليماً ؛ وقادراً على العمل والأداء ، ومتى يمرض ويمكننا معالجته ، ومتى يصبح الطب عاجزاً عن مداواته مهما بلغت براعة الطبيب المعالج ، ومهما بلغ تقدم الوسائل .. فى هذه الحالة الأخيرة لا مجال للمشاعر والعواطف ، ولا مبرر للعناد والمكابرة .. هناك فقط الحقيقة .. الحقيقة التى تؤكد أننا أمام جسد ميت ، وتلك القضية ، التى يناضلون ويقاتلون من أجلها ، هى كالجسد الميت ، لا يربح إلا رثاء العالم وإشفاقه ، أما ما يتشدقون به فى العواصم العربية ، عن التحرير ،

واسترداد الوطن السليب ، فليس سوى عبث ومزايدة وكذلك التضحيات التى يبذلها الفدائيون ، فى عملياتهم ضد الإسرائيليين ، مجرد تضحيات بلا معنى أو فائدة ، مجرد دماء تراق ، دون أن تحرّر وطناً أو تسترده .. إننى حينما أقرر الهجرة إلى (أستراليا) ، فأنا أفعل ذلك محاولا الفرار من تلك الأوهام ، التى يصرُّون على أن أشاركهم إياها .. الأوهام التى تحيط بى هنا ، وتلاحقنى فى (القاهرة) ، وفى أية عاصمة عربية ، على الرغم من الخلافات بينها ، والزاوية التى تنظر منها كل دولة إلى القضية .

وأطلق من أعماقه زفرة حارَّة ، قبل أن يستطرد :

- إننى أسعى للفرار إلى آخر العالم ، حيث أنسى صفة (لاجئ) ، وحتى لا أضيع حياتى من أجل حلم لن يتحقق أبداً .

تنهدت (سلمى) ، وقالت فى هدوء :

- لقد عرفت الكثير عن الجسد البشرى ، وحدود قدراته حقًّا ، ولكنك تجهل الكثير جدًّا عن النفس

البشرية، وقدراتها غير المحدودة .. لقد رأيت أنا رجال المقاومة الفلسطينية .. إن أجسادهم حقًا، وبكل فخر، أجساد لاجئين، ولكن نفوسهم نفوس أبطال، بفضل إيمانهم الذى لا يتزعزع بأرضهم ونضالهم، وبعودتهم يوماً إلى الأرض السليبة .. كل تلك الأشياء لا حدود لها، ولن يمكنك أن تفهمها، ولكنها تثبت وتؤكد فى كل لحظة أن القضية لم تمت، وأن الجسد الفلسطينى حىّ، وسيظل كذلك، ما دام يقاتل، ويناضل كل من يحاول وأد نبضاته ..

ثم استدارت وأولته ظهرها، وانصرفت عنه فى حزم ..



٣ ـ مشاعر حائرة ..

انهمكت (سلمى) فى جمع عناقيد العنب، التى تحيط بدار أبيها، حتى أنها لم تشعر باقتراب (وليد) منها، ولا بوقوفه صامتاً خجلاً خلفها، حتى غمغم فى خفوت:

ـ ألن تذيقينى عنبكم؟

استدارت نحـوه فى حركة حادة، وقد باغتتها عبارته، وتطلعت إلى وجهه برهة بملامح جامدة، وأيد مرتجفة، وشعر هو أن عينيها تحاصرانه بنظرات عتاب واتهام، وخيبة أمل، وأحس أمام نظراتها بالضعف والخجل، فأطرق بوجهه أرضاً، وعادت هى تتشاغل بجمع عناقيد العنب، متجاهلة إياه تماماً ..

وتعجّب (وليد) من هذا التحول، الذى طرأ على (سلمى) التى عرفها، وتساءل من أين أوتيت كل القوة والصلابة، التى شعر بها، ورآها تطل من عينيها، فقال فى ارتياك:

ـ (سلمى) .. لقد تصافيت مع والدى، وعدت

إلى المنزل ، بعد ذهابك مباشرة .. ألن تصفحى عنى أنت أيضاً ؟

قالت دون أن تلتفت إليه :

– إنك لم تخطئ فى حق حتى أصفح عنك ، لقد أخطأت فى حق نفسك ، بتلك الأفكار التى تعتنقها وتردّدها .

اقترب منها ، وكأنما تعلق بهذه الكلمات ، وقال :

– دعينا من هذه الأفكار الآن ، المهم ألا نتشاحن بعد فراق ثمانى سنوات .

التفتت إليه ، وهى تبتسم فى مرارة ، قائلة :

– ليتنا لم نلتق .. لقد عشت دوماً فى مخيّلتى بصورة أخرى ، تختلف تماماً عما أنت عليه الآن .. هل تذكر حينما اختطف بعض الصبية دُمْيتى الصغيرة ؟.. هل تذكر كيف تصدّيْت لهم ، وواجهتهم جميعاً ، حتى استعدتَ منهم دُمْيتى ، وأعدتها إلىّ ؟ .. هل تذكر حينما أصبحت فتى ، وانتقلت إلى تلك الدار الفسيحة الأنيقة ، عندما أغار الإسرائيليون على المخيمات ؟ ..

لقد كنت تسابق الجميع – حينذاك – لتُسهم فى نقل الجرحى والمصابين ، حتى سقطت أرضاً من فرط الإعياء ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد ازددتَ إصراراً على مواصلة عملك حتى النهاية .. هذه هى صورتك ، التى عاشت فى خيالى ، طوال كل هذه السنوات .. صورة المحب لأهله ووطنه ، والمناضل بأفكاره وعلمه فى سبيلهما .

شعر بعاطفة جارفة تجذبه إليها ، وهو يقول :

– أنا أيضاً لم أتخيلك بكل هذا القدر من الحب والإخلاص .

قالت وهى تغالب دموعها :

– لقد تصورت أننا سنتشابه فى شبابنا ، كما تشابهنا فى طفولتنا .

أمسك بيدها ، قائلاً فى حنان :

– (سلمى) .. شىء واحد لم يتبدل طوال كل هذه الأعوام .. حبى لك .. لقد تصورته مجرد علاقة طفولة ، ستبدّدها الأيام ، ولكننى لم أكد أراك حتى

أيقنت أن حبك لم يفارق قلبي لحظة واحدة ، ترى أنتشابه فى هذا أيضاً ؟

سحبت يدها من يده ، وهى تشعر باضطراب حواسها ، وابتعدت عنه قليلا ، لتقاوم فيض المشاعر ، الذى يتدفق فى أعماقها كالتيار الجارف ..

نعم .. إنها تحبُّه ..

تحبُّه حبًّا عاش فى أعماقها ، ونما مع مرور السنين .

حب راسخ فى كيانها ، وليس وهماً أو خيالا ..

حب كالحقيقة ، عاش فى براءة طفولتها ، وملكها فى شبابها ، ولاحقها واستقر فى كيانها طيلة عمرها ..

إنها لم تحب أحداً سواه ..

أحبته صبيًّا ويافعاً ..

قريباً وبعيداً ..

ولكنها الآن ، وعلى الرغم من قوة حبها له ، تخشاه ، وتشعر بحاجز خفى يحول بينها وبينه ، بعد أن تباعدت أفكارهما ، وتعارضت مبادئهما ومثلهما ..

بعد أن أصبح لديها كل الانتماء ، ولديه كل الاغتراب ..

لديها الأمل والحلم والعزيمة ، ولديه اليأس والقنوط والرغبة فى الفرار ، وتغيير جلده ، واقتلاع جذوره ..

كل هذا يجعل المسافة بينهما بعيدة .. بعيدة ، ويجعل عاطفتها نحوه تتضاءل ، أمام العاطفة الكبرى ، التى تشدُّها إلى تلك الأرض الممتدة وراء الحدود ، والتى تعشق ترابها ، الذى لم تمسه منذ مولدها ..

وعاد (وليد) يكرر سؤاله فى إلحاح :

— لماذا لا تجيبين يا (سلمى) ؟ .. لماذا لا تقولين إن شعورى لم يخدعنى ، وإن مكانتى فى قلبك لم تنتزع أبداً ..

اختنقت الكلمات فى حلقها ، ومشاعرها تتصارع وتتضارب ، حتى أنقذها من حيرتها صوت والدها ، وهو يهتف :

— (سلمى) .. (سلمى) ..

ثم لم يلبث أن لمح (وليد) ، فأسرع يصافحه ، قائلا :

— (وليد) .. أأنت هنا ؟

صافحه (وليد) مغمغماً :

— نعم ياعمّاه .. يؤسفنى أن حضرت دون موعد سابق .

ابتسم الوالد ، قائلا :

— ماذا تقول يا ولدى؟ إننى أنا وأباك كالأشقاء، ودارى هى دارك ، و(سلمى) بمثابة أخت لك .. هل نسيت كم كنت تقضى يومك كله فى دارنا ؟.. وكم قضينا من ليال فى دارك ؟ .. أم أنك تنوى تغيير الأمور بعد أن صرت طبيباً ؟! ..

— أنت تعرف يا عماه مكانتك ، ومكانة (سلمى) وهذه الدار فى قلبى ، وهى أقوى من أن يبدّلها أى شىء على الإطلاق .

رمقه الرجل بنظرة ثاقبة ، وهو يقول :

— أتعشّم ذلك يا ولدى .. أتعشّم ألاّ تكون هناك أشياء كثيرة قد تغيّرت فيك .

لم يسمع (وليد) الجزء الثانى من العبارة ، فقد تعلق بصره بشاب ممشوق القوام ، حادّ الملامح ،

يقف بباب الحديقة ، يرقبهم فى إمعان ، وبوجه (سلمى) ، التى اعتراها بعض الاضطراب حينما لمحته، وهى تهتف :

— (جاسر) ؟ !

التفت الأب إلى الشاب ، ثم هتف وكأنما تنبّه إلى شىء غاب عنه :

— آه ! ! كدت أنسى يا (سلمى) .. أن (جاسر) يريد التحدث إليك .. لقد أنسانى لقاء (وليد) أن أبلغك ذلك .

التفتت (سلمى) إلى (وليد) ، وخيل إليه أنها ستنطق بشىء ما ، إلا أنها لم تفعل ، وأسرعت نحو (جاسر) ترحب به ، دون أن تستأذن (وليد) ، أو تعتذر له ، فى حين دعاه والدها لمشاركته الجلوس حول منضدة صغيرة ، تتوسط الحديقة ، إلا أن (وليد) بدا شارداً ، وهو يتابع ببصره (سلمى) ، التى صافحت (جاسر) فى اهتمام ، وصحبته بعيداً عن الحديقة ، وراح يسأل نفسه عن العلاقة التى تربطها بذلك الشاب ،

وكيف سمح لها والدها بلقائه ، والترحيب به بهذه البساطة ، كأنما قد اعتادت استقبال الجميع على نفس النحو ، الذى ظنّ أنها تميّزه به ! ..

ترى أمجرد صديق (جاسر) هذا ؟ .. أم قريب؟. أم يرتبط مع (سلمى) بعلاقة عاطفية يباركها الجميع؟..

ألهذا رفضت (سلمى) إجابة سؤاله ، خشية أن تجرحه بكشف حقيقة مشاعرها نحوه ؟ ..

أفاق من شروده على صوت الحاج (نور الدين)، وهو يكرّر دعوته للجلوس ، فجلس (وليد) وهو لا يزال نهبة لمزيج من المشاعر المتضاربة ، والغيرة العنيفة ، التى عصفت به ، حينما رأى (سلمى) ترحب بالشاب ، ولم يخف على الحاج (نورالدين) ما اعترى (وليد) من مشاعر ، فقال وهو يرمقه بنظرة ثاقبة :

ـ لقد أسعدنى أن عاد الوئام بينك وبين والدك يا (وليد) ، وأرجو أن يظل كذلك خلال إجازتك القصيرة على الأقل .

ولكن (وليد) لم يكن يُصغى إليه فى الواقع ،

فقد كان غائباً بفكره مع (سلمى) ، غاضباً لمجرد تصوُّر أنه هناك من ينافسه فى حبها ..

ولكن لماذا ؟ .. إنه لم يكن هناك بينهما أكثر من ارتباط الطفولة ، من جانبها على الأقل ، ومن الغباء أن يتصور أن مشاعره نحوها تعنى مشاعرها نحوه بالضرورة ، فمن الواضح أن ما يربطها به هو صداقة طفولة فحسب ، ولا ينبغى له أن يلومها على ذلك ، أو يطالبها بما هو أكثر منه ، وإذا كانت هناك عاطفة حقيقية تربطها بذلك الشاب، فعليه أن يفسح لها الطريق، وينسحب بمشاعره ، متمنياً لها السعادة مع من اختاره قلبها ..

أدهشه ذلك القرار ، الذى هبط على مشاعره فجأة، فهو قرار مثالى ، لم يتخذ مثله أبداً ، طوال السنوات الماضية ، فهو يسعى دوماً لنيل ما يتمناه ، ويصرّ على تحقيقه ، دون أن يعبأ بمشاعر الآخرين ..

ولكن كلاًّ .. إنها ليست مثالية كما يُصوِّرها له خياله .. إنها امتداد طبيعى لتلك الشخصية العملية ،

التى قرر أن يصحبها ، التى تعترف بالواقع ، وبالهزيمة متى وقعت .. فما دامت (سلمى) تبدى كل هذا الاهتمام بـ (جاسر) ، إلى الحد الذى يدعوها إلى أن تُهْرَعَ إليه ، بمجرد رؤيته ، دون أن تعبأ بوجوده هو ، فهذا يؤكد حبها للشاب ، وتعلقها به ، وانسحابه فى هذه الحالة لا يعنى مثاليته ، وإنما تعنى رفضه خوض معركة خاسرة ، وقد اعتاد الربح ..

انتزعه الحاج (نور الدين) من شروده مرة أخرى ، وهو يقول فى هدوء ، وكأنما يجيب أسئلته الصامتة :

– (جاسر) ابن صديق قديم لى ، كان يقيم مع أسرته فى (غزَّة) ، قبل عدوان (١٩٦٧) .

وتأمله بعينين فاحصتين ، قبل أن يستطرد فى هدوء :

– هل ضايقك حديث (سلمى) ، إليه وخروجها معه ؟

هزَّ (وليد) كتفيه ، وتصنَّع اللامبالاة ، وهو يقول :

– أنا ؟! .. لا .. ولماذا يضايقنى ذلك ؟

ولكنه كان فى الواقع يختنق ضيقاً ، فحتى ذلك المنطق العملى ، الذى حاول أن يفلسف به موقفه ، لم يفلح فى إنقاذه من مشاعر الضيق والغيرة ، ولقد تمنى لو أسرع خلف (جاسر) ، وانتزع منه الفتاة التى أحبَّها ، ولو بالقوة إذا ما استدعى الأمر ..

تمنَّى لو تصدى له ، كما كان يتصدى فى طفولته لأولئك الصِّبية ، الذين كانوا يحاولون أن يفرضوا أنفسهم عليها ..

ولكن انفعاله عاد يهدأ ، وقد تنبه إلى نقطة دفعت اليأس والإحباط إلى أعماقه ..

إن (سلمى) هى التى هَرْوَلَتْ إلى ذلك الشاب هذه المرة ..

إنه لم يعد فتاها كما كان فى الماضى ..

وتكالبت عليه مشاعر الحب والغيرة والغضب ، وذكريات الطفولة ، وطموحات المستقبل ، وشعر أنه يختنق .. يختنق .. يختنق ..

* * *

٤ ـ لكل منا طريقه ..

استقبلت العمة (جهاد) (سلمى) على باب الدار مرحِّبة ، وضمتها إلى صدرها ، وهى تقول فى حنان :

ـ أهلا بك يا بنيتى فى دارنا .

ـ سمعت أن عمى الشيخ (سالم) مريض ، فجئت لرؤيته .

ـ حفظك الله يا بنيتى ، لقد سأل عنك أمس .

صحبتها العمة إلى حجرة الشيخ ، حيث كان (وليد) يجلس إلى جوار أبيه ، ولم يكد يراها حتى هبَّ واقفاً ، وخفق قلبه أمام نظرات عينيها المعاتبة ، وهى تتجه من فورها إلى فراش الشيخ ، فتجلس على طرَفه ، وتنحنى لتقبِّل يدَ الشيخ ، قائلة فى احترام :

ـ شفاك الله يا عماه !!

ـ (سلمى) .. كنت أنتظر حضورك من حين إلى آخر يا بنيتى .

ـ لقد أتيت فور علمى بمرضك يا عماه ، فأنت تعلم منزلتك فى قلبى .

ـ أعلم يا بنيتى ، ولكننى لم أعتد انقطاعك عن دارنا طويلا هكذا .. أكان لا بد من مرضى لنراك ؟

بدا عليها بعض الاضطراب ، وهى تقول :

ـ أبداً يا عماه ، ولكن شغلتنى بعض الأمور .

علَّق (وليد) فى سخرية لاذعة :

ـ نحن نقدِّر ذلك يا (سلمى) ، فلقد رأيت بعض هذه الأمور ، فى زيارتى الأخيرة لكم .

ظهر التأثر على وجهها ، إلا أنها تجاهلت عبارته تماماً ، وهى تواصل حديثها مع الشيخ ، قائلة :

ـ حمداً لله أن رأيتك فى خير حال ياعماه .

ابتسم الشيخ ، وهو يتطلع إلى ولده ، قائلا :

ـ البركة فى الدكتور (وليد)..إنه طبيب حاذق بحق.

ثم التفت إلى أخته ، قائلا :

ـ (جهاد) .. ألن تقدِّمى شيئاً لـ (سلمى) ؟

ـ لا داعىَ ياعماه ، لقد جئت للاطمئنان عليك فقط ، وما دمت بخير ، فسأذهب لمعاونة أبى فى المزرعة ..

– أبهذه السرعة تتركين عمك العجوز .

– سأحضر لزيارتك غداً ، وسأقضى معك وقتاً أطول بإذن الله .

تطلّع الشيخ إلى ولده ، وتصنّع الصّرامة مداعباً وهو يقول :

– هيّا يا (وليد) .. خذ السيارة من (الجراج)، وأوصل ابنة عمك (نور الدين) إلى المزرعة .

حاولت (سلمى) أن تعتذر ،وهى تقول فى اضطراب :

– لا داعىَ يا عماه .. إن درّاجتى معى ، والمزرعة ليست ببعيدة و ..

– قلتُ إن (وليد) سيوصّلك ، وأنا لا أحب أن تعارضنى ابنتى .

ثم عاد يهتف بـ (وليد) فى حِدّة مُصطنَعة :

– أما زلت واقفاً ؟

غادر (وليد) الحجرة ليخرج السيارة من (الجراج) وبقيت (سلمى) وحدها مع الشيخ ، الذى ابتسم فى وجهها ابتسامة ودوداً ، وهو يقول :

– لقد طلبت من (وليد) توصيلك عامداً ، فهو يرفض مغادرة المنزل منذ ثلاثة أيام ، وقلبى كأب ينبئنى بأن حالته النفسية سيئة ، وبأن لك دخلا فى ذلك .

هتفت فى دهشة :

– أنا ؟!

– نعم .. ولقد لاحظ والداك ذلك أيضاً .. هل تذكرين أننى كنت أقول لوالداك دَوْماً ، وأنتما صغيران ، إننى لن أرضى لولدى زوجة سواك ، وأنه كان يوافقنى فى حماس ؟.. لا تظنّين أننى رجل رجعى، يصرُّ على الالتزام بوعود قديمة ، فأنا أعلم جيداً أنه لا يحق لمخلوق فرض العواطف والزواج على رغبات الآخرين ، ولكننى أوقن أن (وليد) يحبك ، ويتمناك زوجة له ، وأن هذا شعورك أيضاً .

أطرقت (سلمى) برأسها ، وتصاعدت دماء الخجل إلى وجنتيها ، فى حين واصل الشيخ حديثه قائلا :

– لقد وصلت إلى مرحلة من العمر يا بنيتى ، تجعلنى أسمع من الصمت ما يخفيه اللسان ، وأرى فى

العيون ما تحجبه الجفون ، ولقد أنبأنى هذا أن كلاً منكما يحب الآخر ، على الرغم من محاولتكما إخفاء ذلك ، وأنبأنى أيضاً بسر تباعدكما ، مع وجود كل هذا الحب فى قلبيكما .. إن كلاً منكما يخاف الآخر ، ويخشى نظرته للحياة ، وتعامله معها ، وكل منكما يخشى أن يجذبه حبه للآخر إلى عالم يرفضه ، فـ (وليد) قد يبدو لك مختلفاً عن العالم الذى تنتمين إليه ، ولكنه ليس كذلك .. إنه ضحية للخوف والتمزّق ، وسنوات التشريد ، التى دفعنا إليها المحتل الصّهيونى ..

وصلت العمّة (جهاد) فى تلك اللحظة ، لتقطع الحديث ، قائلة :

— (وليد) ينتظر فى السيارة .

ترددت (سلمى) لحظة ، وكأنها تراجع كلمات الشيخ فى أعماقها ، ثم لم تلبث أن صافحته ، وهى تقول :

— أستودعك الله يا عماه .

تعلق الشيخ بمعصمها ، وهو يقول فى رجاء :

— صدقينى يا بنيتى .. ليس (وليد) سيئاً إلى الحد الذى تتصوَّرينه ، إنه يحتاج فقط إلى من يفتح له قلبه ، ويحاول أن يفهمه .. يحتاج إلى من يعيده إلى جذوره الحقيقية .. وأنا أعتمد عليك فى هذا يا بنيتى .. عليك وحدك ..

* * *

على الرغم من نسمات الربيع العليلة ، وفى هذا الوقت من العام ، إلا أن الصمت الذى احتوى (وليد) و(سلمى) ، وهما داخل سيارة (وليد) ، بدا ثقيلاً ، يُطبق على صدريهما ، وتمنى كلٌّ منهما لو بدأ الحديث على نحو ما .. أى نحو ؛ ليبدِّد هذا الصمت الثقيل ، ويمحو تلك المشاعر المتضاربة ، حتى بدأ (وليد) الحديث قائلاً :

— أودُّ أن أعتذر .

— عن ماذا ؟

— عما قلته عند تلاقينا فى حديقتكم .. لم أكن أعلم — وقتئذ — أنه هناك من يشغل عواطفك وأفكارك .

غمغمت متهكِّمة :

— هل تظن ذلك ؟

— من الواضح أنك تكنِّينَ عاطفة قوية لـ (جاسر) هـــذا .

— وما الذى جعلك تعتقد ذلك ؟

— لست غبيًّا ، ولا أحتاج إلى ذكاء كبير ؛ لأفهم ما أصابك حينما رأيته .. لقد هُرعتِ إليه فى لهفة ، دون استئذان أو اعتذار ، بل دون أن تهتمى بوجودى تماماً .

أجابته بنفس النبرة التهكُّمية :

— ولنفرض ذلك .. ماذا تنوى أن تفعل ؟

قال متصنِّعاً اللامبالاة :

— لا شىء بالطبع ، سوى أن أتمنى لك السعادة والهناءة معه ، وإن كنت أعاتبك على أنك قد أخفيت أمر عاطفتك نحوه عنى ، فنحن صديقان قديمان على أية حال .

تطلعت إليه فى ضيق ، وهى تقول :

— أهذا كل ما يمكنك أن تفعله ؟ .. أن تتمنى لى السعادة والهناءة ؟.. أكل ما يضايقك هو أننى لم أخبرك بأمر علاقتى به ؟

— وماذا تريدين أن أفعل ؟

— لا شىء .. إنك لن تفعل شيئاً .. إنك تتحدث فقط عن العواطف ، التى لم تفارق قلبك أبداً ، ولكنك لا تقاتل من أجلها ، بل تقف فى موقف المتفرِّج المستسلم ، وغيرك ينتزعها منك .. لا تحاول أن تدَّعىَ أنها مثالية ، أو تضحية ، فأنا أعرفك جيداً .

— لقـد اعتدت الاعتراف بالواقع ، وعدم المكابرة فى الهزائم ، ومن الواضح أنه لا مكان لى فى قلبك .

هتفت فى انفعال :

— وهـذا هو الحاجز الذى يفصل بيننا .. حاجز صنعته شخصيتك الانهزامية ، التى تتخذ من الواقعية ستاراً تخفى خلفه ضعفها.. إنك لن تقاتل فى سبيل أى شىء ، حتى وطنك أو حبك .

تجلّت الدهشة فى عينيه ، وهو يهتف :

– (سلمى) .. ماذا تقولين ؟

صاحت فى انفعال :

– الذى يحمل قلبه حبًا حقيقيًا لا يتخلى عن حبيبته بمثل هذه البساطة ، لمجرد أحاسيس متشككة فى أعماقه .. إنه يقاتل ويناضل للاحتفاظ بها ، حتى ولو قاتل نفسه .. وكذلك الوطنى ، الذى يعشق تراب وطنه .. إنه لا يتخلى عن نضاله أو قتاله فى سبيل استرداده أبداً .

أوقف السيارة على جانب الطريق ، وهو يقول فى ضيق :

– لم تخلطين الأمور ؟ إننى لم أدّع الوطنية ! !

تطلعت إلى عينيه فى جزع ، وهى تهتف :

– من أنت إذن ؟

– رجل يحبُّك .. يحبك بكل ذرّة فى كيانه .

انحدرت دمعة على خدّها ، وهى تقول :

– هذا أيضاً ادعاء .

هتف بصوت يمتلىء بالرجاء :

– بل حقيقة يا (سلمى) .. حقيقة تصرخ فى أعماقى ، ولا أقوى على مقاومتها .. حقيقة يائسة ؛ لأنها تجد قلبك موصداً دونها .

أطلت من عينيها نظرة رافضة ، وهى تهزّ رأسها ، قائلة :

– لا قلب لمن لا جذور له ، ولا عاطفة لمن لا يؤتمن على تراب وطنه .

أمسك كتفيها ، وهزّها فى عنف ، قائلا :

– حاولى أن تفهمينى يا (سلمى) .. لماذا تريدين منى أن أدفن حياتى وسط هذه المخيمات ، وأولئك البؤساء ؟ .. لماذا تريديننى أن أصحو فى كل ليلة على دوىّ قنابل الغارات الإسرائيلية ؛ لأهرع إلى الجرحى ، وأشيّع مع الأهالى جثث الموتى ؟.. أهذه هى الوسيلة الوحيدة ؛ لأثبت لكم أننى أحبكم ؟ .. أليس من حقى أن أنعم بالسلام ؟ .. بالأمان ؟ .. بالمركز المرموق ؟ .. بهوية حقيقية ووطن ؟ .. ماذا تريدون منى ؟ .. قولى أنت ماذا تريدون منى ؟

انتفضت فى غضب ، وهى تقول :

– لسنا نريد منـك شيئاً .. افعـل ما تريده ، وامضِ فيما تخططه لحياتك ، واحصـل على هويَّتك الزائفة ، التى ستبتاعها بالهجرة إلى (أستراليا) ، ولكن دعنى لشأنى ، ولا تقحم حياتى بعواطفك المزعومة ، فطريقك يختلف عن طريقى .. هـل تسمعنى ؟ .. طريقك يختلف عن طريقى .

ثم غادرت السيارة فى حِدَّة ، وتركته وحـده ، وأكملت طريقها سيراً على الأقدام ..

* * *



٥ ـ هذه هى ابنتى ..

لم يكد الشيخ (سـالم) يفرغ من صلاته ، حتى اتجه إلى غرفة (وليد) ، الذى ترك بابه مفتوحاً ، وراح يذرع حجرته جيئةً وذهاباً ، فوقف والده على باب الحجرة ، وحرَّك حبات مسبحته فى يده ، وهو يقول فى حنان :

– ألم تأو إلى فراشك بعد يا بنى ؟

– لست أشعر بالرغبة فى النوم يا أبى .

– هلاَّ أخبرتنى ماذا يقلقك ، ويحجب النوم عن عينيك يا ولدى ؟

– لا شىء .. لا شىء يا والدى .

– فى الماضى عندما كانت تعترضك مشكلة ما ، كنت تُهرَع إلىَّ طالباً العوْن والمشورة ، ولكنك صرت تخفى مشاكلك عنى الآن ، ويبدو أننى لم أعد أصلح فى نظرك لدور الأب النصوح .

أسرع (وليد) يقبِّل يد والده ، هاتفاً :

– مُحال يا أبتاه .. ستظل لى دوماً الأب الحنون

النصوح ، الذى أحبه وأحترمه ، وأسعى دائماً لطلب مشـورته ، ولكن مشكلتى للأسف بلا حل يمكنك تقديمه إلىّ .

ربتّ الأب على ظهر ابنه فى حنان ، قائلا :

– لا توجد مشكلة بلا حل يا ولدى .

– إلا الحب من طرف واحد يا أبى ، فلا يمكننا أن نحل هذه المشكلة بأن نطلب من الطرف الآخر أن يبادلنا الحب ، فالحب لا يطلب ولا يستجدى .

– إذن فأنت تحب (سلمى) ؟!

– إننى لم أتوقف عن حبها لحظة واحدة منذ طفولتى .

– ومن أنبأك أنها لا تبادلك الحب ؟

– تصرفاتها معى .. إنها تريد أن تضع شروطاً لتصرّح لى بمشاعرها نحوى ، ولا يوجد حب حقيقى تسبقه شروط ؛ لهذا أشك فى وجود هـذا الحب من الأساس ، ثم هناك ذلك الشاب ، الذى يتردّد على منزلها بصفة دائمة ، وتستقبله بكل الاهتمام والترحيب ، بل تخرج معه أيضاً .

ابتسم الأب ، قائلا :

– يسعدنى أن تتكلم عن العواطف والمشاعر يابنى ، فهذا يطمئننى إلى أن قلبك لايزال حيًّا ينبض ، فقد خشيت أن يكون قد مات .

تطلّع (وليد) إلى أبيه فى دهشة ، فى حين استطرد الأب فى هدوء :

– لقد جعلنى حديثك ، معى يوم وصولك ، أتصوّر ذلك ، فالقلب يا ولدى لا يموت بيولوجيًّا فقط ، كما تعرفه أنت كطبيب ، ولكنه يموت وهـو ينبض ، حينما يفتقر إلى العاطفة ، فالقلب حينما يحب ، يتسع ليستوعب كل أنواع الحب والعواطف ، تجاه الوطن والحياة والأمل .

ارتسم الأسى فى عينى (وليد) ، وهو يقول :

– إنك تتحدث بلسان (سلمى) يا أبى .

– لو تخليت عن أنانيتك ، وفرارك المستمر من ذاتك ؛ لوجدت نفسك تتحدث بلسانها أيضاً ، فأنت موقن تماماً من حب (سلمى) لك ، ولكنك تبحث

عن سبب لبث الشكوك فى قلبك ؛ لأنك تخشى أن يشدك حب (سلمى) إلى عالمها .. أو بمعنى أدق إلى عالمنا، هذا هو الذى تطلق عليه اسم الشروط المسبقة .. أنت ممزق يا ولدى بين عواطفك وطموحاتك ، وليس أمامى سوى أن أدعو أن يهديك الله (سبحانه وتعالى) سواء السبيل .

أطلق (وليد) من صدره زفرة حادة، وهو يقول :

– معذرة يا والدى ، سأخرج لاستنشاق بعض الهواء ، فأنا أشعر بالضيق .

غمغم الأب فى قلق :

– فى هذه الساعة المتأخرة يا ولدى ؟

– لن أتأخر طويلا .

– خذ سيارتك إذن .

– إننى أفضل السير على قدمىّ ، فهذا أفضل لحالتى النفسية .

– كما تحب يا بنى ، ولكن لا تتأخر حتى لا أشعر بالقلق .

ابتسم (وليد) ابتسامة باهتة ، وخرج ، وشيعته دعوات الشيخ سالم .. والده .. والده الذى يشعر بكل نيران قلبه ..

* * *

سار (وليد) على قدميه مسافة طويلة ، حتى قادته خطواته إلى منزل (سلمى) ، فوقف يراقبه من بعيد ، وهو يتساءل : هل سيقوى على الابتعاد عنها ونسيانها ؟.. لقد ظل حبها كامناً فى أعماقه ، حتى رآها ، فتفجرت ينابيع الحب فى قلبه، وأعلنت عن وجودها فى حماس، ولكن .. أتشاركه هى هذه المشاعر ؟ .. أتحبه مثلما يحبها ؟ .. ولكن كيف ؟ ..

كيف وهى تحتقر أفكاره وتزدريها ؟ .. كيف وهو يقرأ فى عينيها دوماً نظرة اتهام بالخيانة ؟ ..

إنه ينكر أفكارها ومبادئها ، ولكنه يحترمها ، أما هى فقد تحمل له بعض العواطف ، ولكنها تحتقر أفكاره ومبادئه ، والحب لا يمكنه أن يحيا دون تقدير واحترام من نحبّ ..

ولقد أدركت (سلمى) ذلك ، ففضّلت أن تحتفظ بمشاعرها بعيداً عنه ، بدلا من أن تميتها بقُربه ..

إنه لا يستطيع أن يلومها .. لا يستطيع أن يلوم سوى نفسه ، بكل ما تحمله من خوف فى داخلها ..

خوف من الماضى والحاضر والمستقبل ..

لا يستطيع أن يلوم سوى أنانيته ، التى تدعوه إلى أن يفرّ بنفسه من شعب من اللاجئين ، هو واحد منهم ، ليصنع لنفسه عالماً وحيداً مستقلا .

تبخرت مشاعره فجأة ، واتسعت عيناه فى جزع ، وهو يتطلع إلى أربعة رجال تصحبهم فتاة ، توقفوا عند دار الحاج (نور الدين) لتنفصل عنهم الفتاة ، وتودعهم ملوّحة بكفها ، ثم تتجه إلى المنزل ، ولم يكد الضوء يسقط على وجه الفتاة ، حتى وجد (وليد) نفسه يهتف فى دهشة :

— (سلمى) ؟! .. فى هذه الساعة المتأخرة .

تفجر الغضب فى أعماقه وهو يندفع نحوها هاتفاً :

— ماذا كنت تفعلين فى مثل هذا الوقت المتأخر ، مع هؤلاء الرجال ؟

التفتت إليه فى دهشة ، ثم قالت فى برود مصطنع :

— وما الذى جاء بك أنت إلى هنا ، فى مثل هذه الساعة المتأخرة ؟

أمسك ذراعها فى قسوة ، وهو يهتف فى حِدَّة :

— جاوبى سؤالى أولا .

جذبت ذراعها من يده فى عنف ، وهى تهتف فى صوت أكثر حِدَّة :

— وما شأنك أنت ؟.. إننى حرة ، أفعل ما أشاء ، أقابل من أشاء ، وأخرج وقتما أشاء .

تراجع ، وهو يهتف فى ذهول :

— وتتحدثين عن المثل والقيم ؟! .. أية قيم ، وأية وطنية تعرفها إنسانة مستهترة على هذا النحو ؟ .. لقد تصورت أن علاقتك بـ (جاسر) شريفة ، ولم أكن أتصور أنك ممن اعتدن مصاحبة الرجال ، والخروج معهم حتى ساعة متأخرة من الليل .

تفجرت الدموع من عينيها ، وهى تقول :

— ليتنى أصبت بالصمم ، حتى لا أسمع منك هذا

الكلام الجارح ، فبعد كل هذه السنوات التى جمعتنا منذ الطفولة ، تصورت أنك تعرفنى أكثر من ذلك .

قال متهكماً فى مرارة :

– ليتنى فعلت .. ليتنى عرفتك منذ البداية على حقيقتك .

لم يشعر كلاهما – من فرط الانفعال – بالحاج (نور الدين) ، وهو يقترب منهما بخطواته الوقورة ، ولم تكد أذناه تلتقطان عبارة (وليد) الأخيرة ، حتى صاح فى غضب :

– ابتلع كلماتك الرخيصة يا فتى .

التفت إليه (وليد) ، وهتف وقد أنسته ثورته احترامه وتقديره للرجل :

– تعال يا رجل الدين والأخلاق ؛ لترى ابنتك ، التى تعود بعد منتصف الليل مع أربعة رجال ، متجاهلة أخلاقنا وقِيَمنا ، ثم تتحدث عن الكلمات الرخيصة .

قال الحاج (نور الدين) بلهجة ساخرة :

– أخلاق من؟ وقيم من ؟ .. أما زلت تعدّ نفسك

واحداً منا ؟.. أما زلت تعتبر نفسك فلسطينيًا عربيًا ، لتتحدث عن أخلاقنا وقيمنا ؟ .. إنك تدير ظهرك لكل هذه الأخلاق والقيم ، وتنكر علينا كفاحنا ، وتمسكنا بأرضنا ، وعيناك تتطلعان إلى بلاد بعيدة ، تريد أن تتنصَّل فيها من وطنك وهُوِيَّتك .

قالت (سلمى) لأبيها فى توسُّل :

– كفى يا أبى .. كفى .

ولكن أباها لم يستجب لتوسلاتها ، وازدادت لهجته عنفاً ، وهو يستطرد :

– كلاَّ .. ليس هذا كافياً .. يجب أن يدرك هذا الفتى قدره وقدرك .. اسمع يا فتى .. إننى أعلم أن ابنتى تخرج مع الرجال ، وتعود بعد منتصف الليل .. بل فى صباح اليوم التالى فى بعض الأحيان ، ولست وحدى أعلم ذلك ، والدك أيضاً يعلمه ، ومعظم سكان القرية والمخيمات أيضاً ، وجميعهم يحترمونها ، ويحترمون هؤلاء الرجال أيضاً ؛ لأنهم شرفاء أبطال ، لم يتردَّدوا لحظة فى المخاطرة بأرواحهم وأنفسهم ، من أجل تراب وطن ترفضه وتأبى الانتماء إليه .. إنهم رجال المقاومة الفلسطينية ،

وهذه الفتاة الطاهرة ، التى تتهمها بالاستهتار ، تعمل فى صفوفهم ، وتواجه ما تجبن أنت من مواجهته ، ولقد كانت تقاتل منذ ساعات ، بصحبة هؤلاء الرجال ، دَوْرِيَّة صِهْيَوْنِيَّة من دوريات العدو .. هذه هى ابنتى .. ابنتى التى أفخر بها ، ويفخر بها كل فلسطينى يعشق تراب وطنه .. ابنتى التى أودِّعها فى كل مرة تخرج فيها ، دون أن يعلم أينا ما إذا كنا سنعود فنلتقى فى هذه الدنيا ، أم أن لقاءنا سيكون فى جنات الخلد .. ابنتى التى وهبت نفسها للدفاع عن وطنك ، والسعى لتحريره .. وطنك (فلسطين) يا (وليد) .

ثم أحاط كتف ابنته بذراعه ، وقادها إلى داخل المنزل ، وأوصد بابه فى وجه (وليد) فى عنف ، وترك هذا الأخير جامداً ، متسمراً فى مكانه ، وقد تلاشى منه نبض المفاجأة ، وكساه إحساس الخزى والندم ، وشعر فى هذه اللحظة بأنه يتضاءل أمام (سلمى) التى صارت فى عينيه ضخمة كالجبل.. ضخمة كالوطن..

* * *

٦ - شعور متناقض ..

وقفت (سلمى) بين سكان المخيمات ، توزع عليهم الثياب والفاكهة ، التى جمعتها من مزرعة أبيها ومنازل أثرياء القرية ، من الفلسطينيين واللبنانيين ، وهى تحيط رأسها بغطاء الرأس الفلسطينى المميَّز ، ويشاركها عدد من الشباب والفتيات ، الذين تطوعوا لذلك ، والجميع يتنقَّلون بين بيت وآخر ، من تلك البيوت الحجرية ، ذات الطابق الواحد ، والحجرة الواحدة ، التى تسلمها اللاجئون من وكالة الإغاثة ، ويتبعهم صغار المخيم ، وكان سكان المخيم يستقبلونهم فى فرح وترحاب ، ويتقبلون عطاياهم شاكرين ، ثم يمطرونهم بالدعوات..

وبالقرب من المخيم توقفت سيارة الشيخ (سالم) ، وهبط منها (وليد) حاملا صندوقاً كبيراً ، يمتلىء بالمأكولات ولفائف الأطعمة ، ووالده من خلفه يقول :

- هيَّا يا ولدى ، قم بتوزيع هذه الأشياء على إخوانك وأخواتك .

حمل (وليد) الصندوق ، وطاف بمنازل المخيم ، ليوزع على أهله ما جاء به أبوه ، وهزَّته دموع الفرح ، ودعوات سكان المخيم حتى الأعماق ، وهم يتلقَّوْن هداياه ، وابتسم للصِّبية ، الذين يتلقفون الأطعمة فى سعادة غامرة ، صاخبين مهللين ، وتذكر أنه كان يوماً أحدهم ، وعاوده ذلك الإحساس القديم ، الذى كان يعتريه ، وهو يتلقى مثلهم تلك الهدايا ، التى يجود بها الأثرياء ، ليؤكدوا للفقراء من شعب (فلسطين) ، أنهم شعب واحد ، وقلب واحد ..

وأدهشه فى تلك اللحظة أنه لم يكن يشعر بأدنى قدر من ذلك الخزى والعار ، اللذين كان يشعر بهما آنذاك ، واللذين كانا يعاودان ذاكرته ، وهو طالب فى (بيروت) ، ثم فى (القاهرة) ، بل كان يشعر بسعادة غامرة ، تمتزج بمشاعر الصغار ، وتتحد معها ، فازداد حماسه ، وإقباله على توزيع الهدايا ، بعد أن كان — فى هذا الصباح فقط — يشفق على نفسه من ثقل تلك المهمة ،

التى تذكره بماضيه ، وانتمائه ، بعد أن ودَّع الفقر ، وصار طبيباً ناجحاً ..

واستوقفه رجل يطوف بسيارته وسط المنازل ، ويوزِّع هداياه بدوره ، وهتف يناديه :

— (وليد) .. (وليد) ..

التفت (وليد) يتطلع إلى صاحب النداء ، الذى هبط من سيارته ، وهو يخلع منظاره الداكن ، ويبدو واضح الثراء بحلته الأنيقة وسيارته الفاخرة ، وتطلع الرجل إلى وجهه ، وهو يقول :

— ألست (وليد) ، ابن الشيخ (سالم) ؟

أجابه (وليد) :

— بلى .. هل تعرفنى ؟

ابتسم الرجل ، قائلا :

— ألا تذكرنى ؟ .. أنا (غسَّان) ، زميلك فى مدرسة النجاح الثانوية فى (بيروت) ، والصبى الذى كان يتشاجر معك دوماً ، فى طرقات المخيم ، ونحن أطفال ..

هتف (وليد) :

— (غسّان القيسى) ؟ .. غير معقول !!

ضحك (غسّان) ، قائلا :

— هل تذكرتنى ؟

رفع (وليد) حاجبيه فى دهشة ، وهو يقول :

— ولكنك تغيرت كثيراً ، لقد كنا نلقبك بذى القميص والسروال الواحد طوال العام ، فما الذى طرأ عليك ، وجعلك تصل إلى هذه الدرجة من الوجاهة والأناقة ؟

ابتسم (غسان) ، وهو يقول فى مرح :

— كلاً .. لقد تبدلت الأمور ، وتغيرت الأحوال .

تطلع (وليد) إلى السيارة الفاخرة ، وهو يسأله :

— أهذه سيارتك ؟

— بالطبع .. أكنت تظن أننى أعمل عليها كسائق؟

هتف (وليد) فى دهشة :

— ما الذى بدّلك إلى هذا الحد بالله عليك ؟

— التجارة يا صديقى ، لقد زاولتها ، وحققت فيها نجاحاً كبيراً ، ونشاطى التجارى يمتد الآن إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) ، وعدة دول أوروبية، وهذا يستدعى أن أقضى معظم السنة فى الخارج .

وليـد :

— وما الذى أعادك إلى هنا ؟

ابتسم (غسان) ، قائلا :

— السبب نفسه ، الذى جاء بك يا صديق .. جئت أقدم لإخوانى بعض المال والهدايا .

— لم أعرفك محسناً كبيراً إلى هذا الحد .

اكتسى وجه (غسّان) بملامح الغضب ، وهو يقول :

— لا تطلق عليه لقب (الإحسان) يا (وليد) .. إنه جزء من حقهم علىّ ، لقد شتّت العدو الصّهيونى شملنا ، ولكنه لن يشتت مشاعرنا وقلوبنا ، حتى ولو بدا ذلك على السطح — لبعض الوقت — فكلنا فى النهاية لاجئون ، وكلنا تجمعنا نكبة واحدة ، وقضية واحدة .

غمغم (وليد) متعجباً :

– أما زلت تعدّ نفسك لاجئاً ، بعد أن حققت كل هذا الثراء ، وكل هذا النجاح ؟

أجابه (غسان) ، وعيناه تحملان نظرة عميقة :

– كل ما حققته ، وكل مكان أذهب إليه ، لن يغير من كونى فلسطينيًّا ، ولد وعاش دون أن يمسّ أرض وطنه ، وهذا ما يميزنى عن أى مواطن فى العالم أجمع .

قال (وليد) محاولا التهوين من الأمر :

– ولكن هناك من يولدون فى بلاد هاجر إليها أسلافهم ، ويعيشون ويموتون ، دون أن يروا موطنهم الأصلى ، ودون أن تتولد لديهم أية عُقد دفينة .

تنهد (غسَّان) ، قائلا :

– هذا لأن أسلافهم غادروا موطنهم بمحض إرادتهم ، ولم يجبروا على ذلك ، تحت ضغط وإكراه مستعمر استيطانى ، نشَرَ فى أرضهم الآمنة الرُّعب والفزَع والدَّمار ، وقتلَ شيوخهم وأطفالهم ، وبقَرَ بطون

حواملهم ، فى مذابح بربرية دامية ، كمذبحة (دير ياسين) .. أسلافهم لم يحيوا مشردين ، يحملون لقب اللاجئين ، فى أسوأ وأقصى ظروف معيشية .. إن كل الأموال التى جنيتها ، وكل الأماكن الفاخرة التى أقيم فيها ، أو أذهب إليها ، لا ولم ولن تغنينى عن نسمة هواء واحدة ، أتنسمها فى (فلسطين) ، أو حفنة تراب من أرضها .. لقد كنت وسأظل لاجئاً إلى أن يتحقق الأمل ، ما دام وطنى مغتصباً ، حتى ولو حرمت طيلة عمرى من العودة إليه .

هزَّت الكلمات مشاعر (وليد) فى شدة ..

ها هو ذا شخص ثان يلتقى به ، ليذكره بضعف مبادئه وانتمائه ..

وقال (غسَّان) ، محاولاً التغلب على مشاعره الفياضة :

– أنت لم تخبرنى بعد ، كيف أنت الآن ؟

– لقد تخرجت من كلية طب (القاهرة) ، وأصبحت طبيباً للأمراض الباطنية .

- عظيم .. سيفيد هؤلاء البؤساء كثيراً من خبراتك .. إنك تعمق فى ذهنى فكرة ، تراودنى منذ زمن طويل ، فأنا أفكر فى إنشاء مستشفى خاص ، لعلاج سكان المخيمات مجاناً ، ويمكنك أنت أن تتولى مهمة الإشراف عليه .

هزَّ (وليد) رأسه ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فقد خجل أن يصرح له برغبته فى الهجرة إلى (أستراليا) والابتعاد عن كل ما يذكِّره بالمخيمات ، وسكان المخيمات .. بل كل ما يذكره بـ (فلسطين) نفسها .. لم يكن يجرؤ على أن يصرح بتلك الأفكار ، التى تكشف ضعف انتمائه ، وطموحاته الرخيصة ، أمام رجل لم ينسه ثراؤه ونجاحه أهله ووطنه ، اللذين يجرى حبهما فى عروقه مجرى الدم .

وقطع عليه (غسان) تفكيره ، قائلا :

- سأستأذنك الآن ؛ لأنهى مهمتى ، فلدىَّ موعد بعد قليل ، فى أحد مكاتب منظمة التحرير ، ولكننى سأقضى أسبوعاً هنا ، ولا بدّ أن نلتقى .

وانصرف على عجل ؛ ليتم مهمته ، وترك (وليد) حائراً متعجبًا ، يتساءل عن العلاقة التى تربطه بمنظمة التحرير الفلسطينية ، حتى سمع عجوزاً إلى جواره ، يلهج بالدعاء ، قائلا :

- حفظك الله يا (غسان) يا ولدى ، وزادك نعيماً وثراءً .

التفت إليه (وليد) ، يسأله فى دهشة :

- هل تعرفه ؟

تعجب العجوز من سؤال (وليد) ، وهو يقول :

- ومَنْ فى كل المخيمات لا يعرفه .. الكل يعرفه ، ويحبه ويحترمه ، فهو لم ينس وطنه وأهله أبداً ، ومهما طال غيابه عنا ، فهو يعود دوماً محملا بالعطايا والخير .

سأله (وليد) مستفسراً :

- ولكن أتعرف شيئاً عن علاقته بمكتب منظمة التحرير هنا ؟

قال العجوز وهو ينظر إلى (وليد) فى دهشة ، وكأنما يتطلع إلى سائح أجنبى :

— إنه من أكبر مموّلى المنظمة ، ويتبرع لها بمئات الآلاف من الدولارات سنويًا .. والآن هل ستعطينى لفافتى أم لا ؟

ناوله (وليـد) إحـدى اللفافات ، التى يحويها الصندوق ، وقد أدهشه ما يسمع ، واتجه نحو أحـد البيوت ، ليدق بابه ، إلا أنه تصلَّب فى مكانه، حينما رأى (سلمى) تتجه إلى البيت ذاته، وكذلك تصلَّبت هى ، فقد كان آخر ما تتوقعه أن تراه هناك ، وسط المخيمات ، يوزع العطايا والهدايا ..

وتسمر الإثنان، وكل منهما يتطلع إلى عينى الآخر ، وعيونهما تروى كل ما يعتمل فى نفسيهما من حب .. وألم .. وخجل .. وحنين .. ومعاناه ..

شعرا فى تلك اللحظة بشعور متناقض عجيب، فقد كان كل منهما يشعر أنه أقرب ما يكون إلى الآخر .. وأبعد ما يكون عنه ..

* * *

٧ ـ ماساة مروعة ..

كـانت (سلمى) هى الأسبق إلى باب الدار ، واستقبلها أهله فرحين ، وهم يتلقون هدايا ، والتف حولها الصبية ، يلتقطون الحلوى من بين يديها ويدى (وليد) ، الذى راح يتطلع إليها فى شرود ، باحثاً عن كلمات يبدأ بها حديثه معها ..

وكان الصخب والمرح يحيطان بهما تماماً ، ولكن دقات قلبيهما كانت تعلو فوق كل صخب وضجيج ، حتى انتهت مهمتهما ، فاقترب منها (وليد) ، وقال :

— لست أدرى ماذا أقول يا (سلمى) ، فمهما بحثت وحاولت ، فلن أعثر أبداً على كلمات تصلح لاعتذارى ، أو إبداء أسفى وندمى .. لقد تصرفت بكل الحماقة والغباء ، مع إنسانة تستحق كل احترام وتقدير .. حبى لك أعجزنى عن السيطرة على انفعالاتى وعواطفى ، وأوقعنى فى شرك الغيرة العمياء ، ولعلك تعلمين أن المحب يغار على محبوبه ، حتى من الهواء الذى يتنسمه ،

ولكننى أعلم أننى لا أستحق ذرة من حبك .. لا أستحقك .. فحبى لك ضيِّق ، أنانى ، محدود ، وحبك يتسع ليشمل شعباً بأسره ، وأرضاً لا يحول بينها وبين حبك حائل، ولا يعرف قلبك فى سبيلها حدود .. كل ما أرجوه هو أن تغفرى لى قولى وفعلى، وأن يشفع (وليد) ، صديق الطفولة ، لـ (وليد) المحب الأحمق .

لم يكد يتم كلماته ، حتى استدار منصرفاً ، ولكنها هتفت فى لهفة :

– (وليد) .

توقف ، والتفت إليها فى بطء ، وسمعها تقول فى خفوت :

– لقد أساءت إلىّ غيرتك حقًّا ، ولكن يسوءُنى أكثر أنك لم تعرف مقدار حبى لك إلى الآن .

تألق وجهه فرحاً ، وهو يسمع هذا الاعتراف منها لأول مرة ، واندفع نحوها هاتفاً :

– أحقًّا ما تقولين يا (سلمى) ؟.. أحقًّا تحبيننى ؟

ابتسمت ، وهى تقول فى خجل ودلال :

– عدم تصديقك لذلك يؤكد حماقتك حقًّا .

أمسك كفيها ، وهو يقول فى نبرات مرتجفة ، من فرط الانفعال :

– لقد كنت كذلك حقًّا .

اتسعت ابتسامتها ، وهى تقول مُداعِبةً :

– من المؤسف أن أقع فى حب شخص أحمق ، ولكن لا حيلة لقلبى فى ذلك .

قبَّل كفيها ، وهو يقول فى هيام :

– (سلمى) .. حبيبتى .

مرَّ فى هذه اللحظة موكب عُرْس ، وسط المخيم ، وتعالت الزغاريد لتنافس دقات الدفوف ، فهمس (وليد) :

– يا له من فأل حسن ! !

تلاشت فرحتها بغتة ، وعاد وجهها يكتسى بمسحة حزن ، وهى تقول :

– فلنكتف بالحب يا (وليد) ، دون أن نحلم بالزواج .

قال فى حيرة :

– ولم لا يا (سلمى) ؟.. إنها أمنية كل المحبين .. هل تذكرين حينما كنت أقول لك ، ونحن بعد أطفال ، إنك لن تتزوجى سواى حينما نكبر ؟

تنهدت ، وهى تقول :

– كنّا صغاراً حينذاك .

– ولم تتغير مشاعرنا حينما كبرنا .. أليس كذلك؟

– ولكن تغيرت ظروفنا ، إن لك أهدافاً وطموحات أخرى، تختلف عن الطريق ، الذى اخترته أنا لحياتى .

– دعى الحب يقرّب بين أهدافنا ومبادئنا وطموحاتنا .

ابتسمت فى مرارة ، قائلة :

– لا أستطيع أن أحيا فى (أستراليا) يا (وليد) ، فحياتى مرتبطة بوجودى قريباً من الأرض التى أعشقها، وأكافح من أجل حريتها .

مسح على شعرها ، وهو يقول فى حنان :

– ومن تحدّث عن (أستراليا) ؟ .. ألا تعلمين أننى قد بدأت أتغير ؟ .. ولست وحدك سبب هذا التغير يا (سلمى) ، بل كل من التقيت بهم هنا .. كلهم جعلونى أشعر بخطئى وأنانيتى ، واليوم وأنا أوزّع تلك اللفائف على سكان المخيمات البسطاء ،شعرت بتوحد غريب بين مشاعرنا .. شعرت أننى أينما ذهبت، ومهما كنت ، فسأظل دوماً واحداً منهم .. إننى أحتاج إلى إنسانة مثلك يا (سلمى) ، تقودنى إلى الطريق الصحيح .. أحتاج إلى حبك .. أحتاج إلى مبادئك ، وإيمانك العميق ، الذى لا أملك مثله ، تجاه هذا الوطن الذى حرمت منه .

امتلأت عيناها بالدموع ، وهى تقول :

– كم يسعدنى أن أسمع منك تلك الكلمات .

أمسك وجهها بين كفيه فى حنان ، وهو يقول :

– قولى إذن أنك تقبلين الزواج منى .

أجابته بدموعها :

– لا يمكننى يا (وليد) .

— لمـــاذا ؟

— حاول أن تفهمنى .. إننى فدائية ، أحمل رأسى على كفى ، فى كل مرة أذهب فيها للقاء العدو ، فى إحدى عمليات المقاومة ، وهـذا قدرى ، لن يمكننى التخلى عنها ، ما بقيت أرضى محتلة ، فمصيرى يرتبط بحرية وطنى وموته ، ولا ذنب لك لتتزوج فتـــاة على موعد دائم مع الموت .

تطلع إلى عينيها ، وهو يقول :

— لقد أحببتُ (سلمى) ، الجميلة الرقيقة ، واحترمت (سلمى) ، المناضلة ، التى تقاتل من أجل قضية تؤمن بها ، والتى حولت أفكارى تجاه وطنى ، وأريد أن أتزوج الاثنتين معاً .

حاولت أن تعترض ، إلا أنه واصل حديثه ، قائلا :

— لقد تقاسمنا براءة الطفولة ، وحب الصبا والشباب ، ومن الغبن أن تحرمينى الآن أن نتقاسم مشاعر النضال ، ومواجهة الموت .

دفنت وجهها فى صدره ، وهى تبكى ، قائلة :

— (وليد) .. كم أحبك .

عاد يمسح بيده على شعرها فى حنان ، وهو يقول :

— سنعلن حبنا على الملأ ، ونقيم عرسنا فى هـذا المخيم ، الذى شهد مرح طفولتنا ، وسعادة حبنا .

ارتفعت عن بعـد زغاريد العـرس ، ودقات الدفوف ، وكأنما تعلن زفاف حبهما ..

وفجأة توقفت الدفوف ، واحتبست الزغاريد فى الحلوق ، وتفجّر الصراخ ، وحلّ الفزع ، وتعالى صوت الانفجارات ، والطائرات الإسرائيلية تقصف المخيم بقنابلها ، وتدك المخيم الآمن بصواريخها ، لتحوّله إلى جحيم مستعر ، وتسقط القتلى والجرحى من الأطفال والنساء والشيوخ ، وأسرع (وليد) يدفع (سلمى) بعيداً ، حتى لا يصيبها القصف ، إلا أنها أفلتت منه ، واندفعت نحو قلب الانفجارات ، وهى تصرخ فى غضب :

— قتلة .. سفاحون .. مجرمون .

وألقت الطائرات الإسرائيلية بمنشوراتها ، التى

تنذر سكان المخيمات بتكرار القصف ، إذا ما تكررت أعمال الفدائيين ، أو حاول سكان المخيم إيواءهم ، والتستر عليهم ، وانطلقت (سلمى) تمزق المنشورات فى ثورة عارمة ، وهى تهتف :

– أتظنون أن إرهابكم وعدوانكم سيوقفان نضالنا وكفاحنا ، من أجل استعادة وطننا ؟ .. كلاَّ .. إن نضالنا لن يتوقف ، وشعبنا لن يموت ، ولن يخمد كفاحه من أجل (فلسطين) .

أسرع (وليد) يجذبها إليه ، ويحتمى معها بجدار أحد البيوت ، والقذائف تنهال حولهم ، وتدمر كل شىء ، وهو يشعر بهلع وذعر هائلين ، ولكن خوفه على (سلمى) ينسيه مشاعره ، وهو يتشبث بها ؛ ليحول بينها وبين انفعالها الشديد ، الذى جعلها تقاومه فى عنف ، لتهرع نحو الأطفال والنساء ، الذين يسقطون قتلى وجرحى ، لتحميهم بجسدها ، وهو يشعر ، وهو يحتضنها فى تلك اللحظة ، أنه سيتمسك بها أكثر من تمسكه بالحياة ..

وأخيراً هدأت الطلقات ، وتوقف القصف ، وابتعدت الطائرات ، وبقى السكون ..

سكون الموت ..

وأخذ المشهد المروع ينكشف رويداً رويداً ..

عشرات الجثث والأشلاء الممزقة ..

البيوت الحجرية الصغيرة دُمِّرت ، بعد أن سرق المعتدون وطن أصحابها ..

ومالت الشمس للمغيب ، وكأنها تعلن للدنيا حزنها ولوعتها ، لهذه المجزرة الدامية ، التى راح ضحيتها العشرات من النساء والأطفال والشيوخ ..

وتحوَّل موكب العرس إلى موكب أحزان ، وقد اختلطت أشلاء العروس بأشلاء الضحايا ..

وصمتت الدفوف ، بعد أن دفنت وسط الحطام ، وتوقفت الزغاريد ، وتحولت إلى نحيب وبكاء ..

فى لحظة واحدة ماتت الأفراح ، ودفنت الأمانى ، وانبعث الحزن والألم ، مع رائحة الموت ، الذى خيَّم

على المكان بجناحيه السوداوين ، غير مبال بعويل المنكوبين ، وأنين الجرحى ..

وأجهشت (سلمى) بالبكاء ، وهى تتنقل بين الجثث والأشلاء ، وارتعد (وليد) ، وانسالت دموعه فى غزارة ، غير مصدق لما تراه عيناه ..

لقد رأى فى طفولته وصباه العديد من جرائم العدو الصهيونى ، ولكنه لم يرمن قبل مثل هذه المأساة المروعة ، التى خلفها عدوانه الآثم ، وتمزق قلبه وهو يمر بجثث الأطفال وأشلاء النساء ، ورأى (سلمى) وهى تشد شعرها ، وتولول ، وتدفن وجهها فى التراب ، باكية ، هاتفة :

— ما ذنب هؤلاء المساكين ؟ .. أى جرم ارتكبوا ؟

وفى أعماق (وليد) ، هتف السؤال نفسه :

— نعم .. ما ذنبهم ؟ ..

* * *

٨ — شعلة لا تنطفىء ..

قضى (وليد) الأيام التالية فى علاج جرحى ومصابى العدوان الإسرائيلى ، وعجز مستشفى البلدة الصغير عن استيعاب كل هذا العدد منهم ، فحوَّل (وليد) ، ووالده الشيخ (سالم) ، فناء منزلهم إلى مستشفى مؤقت ، يشرف فيه ، مع عدد من المتطوعين ، على علاج الباقين ، ولقد بذل (وليد) جهداً خارقاً ، طوال تلك الأيام التالية للعدوان ، وهو يحاول مداواة الضحايا بالقدر المتاح له ، وبما قدمته هيئتا الصليب الأحمر ، والهلال الأحمر من خدمات ، حتى شعر بالضعف والإعياء يدبان فى جسده ، حتى كان فى حالة يرثى لها ، وهو يشرف على عملية نقل دم لأحد المصابين ، بعد أن أمضى ثلاثة أيام ، لم يذق فيها طعم النوم ، ولاحظت (سلمى) ، التى عاونته طيلة هذه الأيام الثلاثة ، أنه يكاد يسقط أرضاً ، فقالت له فى حنان ، وهى تمسح عرقه بمنشفة صغيرة :

— (وليد) .. إنك مرهق للغاية ، لماذا لا تذهب

إلى المنزل ، وتحاول الحصول على قسط من النوم ؟

حاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة ، تخفى إرهاقه الشديد ، وهو يقول :

– إن هؤلاء المنكوبين يحتاجون إلى كل دقيقة من وقتنا ، وبعضهم لم يتجاوز مرحلة الخطر بعد .

– لقد بذلت أقصى جهدك ، ولن يمكنك المواصلة هكذا ، وهناك الدكتور (وليد) ، وطاقم التمريض و ..

– صدقت .. إننى بالفعل مُرْهق للغاية ، ولن يمكننى إفادتهم هكذا ، فيداى ترتعدان ، والرؤية أمامى مشوَّشة مهتزَّة ، سأحاول الحصول على قدر من الراحة .

استدار ليدخل إلى منزله ، ولكنه توقف فجأة ، والتفت إليها ، قائلا :

– وماذا عنك ؟ .. أنت أيضاً متعبة ، وتحتاجين إلى الراحة ، لِمَ لا تحصلين على قسط من النوم أيضاً ، فى حجرة العمة (جهاد) ؟

قالت ، وكأنها تتمسك بالبقاء وسط أولئك البؤساء :

– سأنام هنا ، بينهم ، فهناك سرير خال ، إذ ربما احتاج أحدهم إلى شىء ما .

ربَّت على خدها ، وهو يقول فى صوت خافت حنون :

– من الأفضل أن تنالى قسطاً من الراحة يا (سلمى) ، ففاقد الشىء لا يعطيه ، ولا يمكننا أن نوفر لهم الراحة ، ونحن نفتقر إليها .

ربَّتت بكفها على كفه ، التى تلامس خدها ، وهى تومئ برأسها فى طاعة واستسلام ، وحينما حاول (وليد) أن يجذب يده ، تشبثت بها فى رفق ، وتساقطت الدموع من عينيها على ابتسامة ، حاولت أن ترسمها على وجهها ، وهى تقول :

– (وليد) .. إننى فخوره بك ، لقد بذلت جهداً خرافيًّا لإنقاذ الجرحى والمصابين .

– وهـل كنت تتوقعين أن أتخلّى عنهم .. إنه واجبى كطبيب وإنسان ..

واستطرد ، وهو يضغط حروف كلماته فى فخر :

– وكفلسطينى .

واحتضن كفها بكفيه ، وضغطها فى حنان ، ثم تركها ، وهو يبتسم قائلا :

– والآن اذهبى لتنامى ، فمازال أمامنا عمل كثير حينما نستيقظ .

* * *

تكرر القصف الإسرائيلى مرة أخرى ، فى اليوم التالى ، مخلفاً مجموعة جديدة من الضحايا ، ولكن رجال المقاومة الفلسطينية تصدوا للطائرات المغيرة هذه المرة ، بوسائل الدفاع الجوى البسيطة ، التى يملكونها، وتوالت النشرات فى كل أنحاء العالم ، فى الصحف والإذاعات، تُـدِين العدوان الإسرائيلى،وتعلن شجب الدول العربية له ، ولكن أحداً غير أولئك البؤساء ، الذين حرموا الوطن والأمان ، لم يكن يشعر بفداحـة

الكارثة التى كان (وليد) و (سلمى) يعيشان فى مركزها..

لقد رأيا الموت والقتل والدمار بعيونهما ، وعاشا وسط الجرحى والمصابين أياماً طوالاً ، وتلك الدائرة الجهنمية العدوانية الباغية تأتى إليهم بالمزيد من الضحايا، نجا بعضهم من الموت بأعجوبة ، وحمل البعض الآخر أثر العدوان ، ما بقى له من العمر ، فى ساق مبتورة ، أو أطراف مفقودة ، واقتنص الموت البعض ، وهو يكبّر صورة المأساة فى كل يوم ، فى عينى (وليـد) و (سلمى) ، اللذين قرّبت المعاناة بينهما كثيراً ، وضاعفت مشاعرهما تجاه الضحايا مشاعر حبهما ..

(وليد) – على الأخص – شعر بذلك التحـول الذى اعتراه ، فلم يعد حبه قاصراً على(سلمى) وحدها، وإنما امتـد ليشمل كل المبادئ والأفكار ، التى تؤمن بها ، واتسع ليشمل عواطفها الإنسانية والوطنية ..

لقد رأى فى حبه لها حبه لـ (فلسطين) .. لأرضه التى ينتمى إليها،والتى لا تغنيه عنها أيةهوية فى العالمأجمع..

كل الكلمات التى رددتها (سلمى) ، والتى رددها

والده ، وصديقه (غسان) ، أحس بها تتغلغل فى أعماقه ، مع حبه لها ، الذى كشف عن أصالته وعمقه ، وسط النيران ..

نيران العدوان والدمار :.

لقد قتل العدو بأسلحته المئات ، وجرح الآلاف ، ولكن كل ما فى ترسانته من أسلحة خراب ودمار لم يخنق حبه لـ (سلمى) ، بل زاده لهيباً ، وعمقاً ، وقوة ، وإصراراً على الحياة وسط الموت ..

خمدت نيران الحرب ، وتأججت شعلة الحب ..

حب(وليد)و(سلمى)، وعشقهما لوطنهما السليب..

تأجّج أملهما فى أن يتزوجا يوماً ، ويكون لهما منزل صغير ، وأسرة فى بلادهم ، شأن كل الأحياء ، فى سائر أركان الأرض ..

لقد خرج الحب من بين الأنقاض قويًّا ، شامخاً، وتحوَّل الأمل إلى عزيمة وصمود وإصرار ..

لقد استيقظ الحب .. وسط النيران ..

* * *

٩ – موكب العرس ..

تفرّست عيناها فى وجهه فى لهفة ، وكأنها تخشى أن تغيب عنها – لحظة واحدة – ملامحه التى أحبتها ، فسألها هو ، وقد أدهشته نظرتها الطويلة :

– لماذا تتطلعين إلىّ هكذا يا (سلمى) ؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة ، بدت وكأنها تنتشلها فى صعوبة من نبع يفيض بالحزن وهى تقول :

– لا شيء يا (وليد) .. فقط أتأملك .

تلامست أيديهما ، وانبعث من تلامسها دفئاً حانياً ، وهى تسأله :

– (وليد) .. أتحبنى حقًّا ؟

– أمازال لديك شك فى هذا ؟

– كلاً ، ولكننى أحب أن أسمعها منك .. أحب أن ترددها على مسامعى .

– أحبك .. أحبك .. أحبك .

ألقت رأسها على كتفه ، وهى تقول :

– أنا أيضاً أحبك .. أحبك أكثر مما تتصوَّر .

مرَّ بأصابعه فى خصلات شعرها ، المنسدل على كتفيه ، وهو يقول :

— فلنتزوج إذن يا (سلمى) .

رفعت رأسها عن كتفه فى حركة حادة ، وكأنما انتشلتها عبارته من وجدها ، وهى تغمغم :

— نتزوج ؟!

قال وعيناه تنطقان بالرجاء :

— نعم يا (سلمى) .. دعينا نحقق حلمنا .

ارتفع صدرها وانخفض فى تنهدات سريعة ، أشبه باللهاث ، وهى تقول :

— وسط كل هذه الظروف ؟

اكتسى صوته وملامحه بالإصرار ، وهو يقول :

— نعم .. وسط كل هذه الظروف ، لنثبت للعالم أجمع أننا ما زلنا أحياء ، نحب ، ونتزوج ، وننجب أطفالا يؤكدون أن هذا الشعب لن يندثر أبداً .. سنتحدَّى اليأس الذى أرادوا أن يحيطونا به ، بالفرح والبهجة ، ونتحدَّى الفناء الذى أرادوه لنا ، بالإصرار

على البقاء .. إن زواجنا يا (سلمى) سيكون بمثابة دعوة للحياة ، وسط ظلال الموت القاتمة .

اتسعت ابتسامتها ، وهى تتطلع إليه فى إعجاب ، قائلة :

— لقد تغيرت كثيراً يا (وليد) .

— نعم يا (سلمى) ، والفضل يعود إليك ، وإلى أولئك البسطاء ، الذين رأيتهم يواجهون الموت فى شجاعة ، دون أن يزعزع الدمار والخراب ، اللذان أحاطا بهم ، إصرارهم على التمسك بالحياة ، والإيمان بعودتهم إلى وطنهم .

— حمداً لله على سلامتك .

— ماذا تعنين ؟

— لقد عدت إلى جذورك الحقيقية .

— إذن فقد أصبحت أستحقك .. أتوافقين على الزواج منى إذن ؟

أومأت برأسها ، وهى تقول فى حب :

— نعم .. نعم يا حبيبى .

هبَّ واقفاً ، وهو يهتف فى مرح :

— يا إلهى !! .. كم هى جميلة هذه الكلمة .. لم أتخيل مطلقاً أننى سأشعر بكل هذا القدر من السعادة ، حينما أسمع هذه الكلمة من بين شفتيك .

وجذبها من يدها ، وهو يقول :

— هيَّا .. هيَّا بنا .

هتفت ضاحكة :

— إلى أين ؟

— سنعود إلى ديارنا فى الحال .. سآخـذ الشيخ (سالم) إلى داركم ؛ للقاء والدك، والاتفاق على ترتيبات الزواج بأسرع وسيلة ممكنة ، قبل أن تغيِّرى رأيك .

انطلقا يجريان فى سعادة ، فوق التل المؤدى إلى البلدة ، ويداهما متعانقتان . حتى هتفت (سلمى) وهى تلهث :

— كفى .. كفى أيها المحب المجنون .

التفت إليها وهو يلهث بدوره ، وقال والفرحة تملأ وجهه ، وتتألق فى عينيه :

— سأكون مجنوناً حقًّا ، لو لم أسرع باستغلال موافقتك على الزواج منى . لقد انتظرت طويلا موافقة أجمل فتاة فلسطينية فى الجنوب كله ، ولم يعد بوسعى المزيد .

أمسكت ساعده بكلتا يديها ، وهى تقول :

— هل ستظل تحبنى دوماً هكذا ؟

— حتى نهاية العمر .

— ولو متّ قبلك ؟

اضطربت ملامحه ، وارتسم عليها الجزع ، وهو يضع يده على فمها ، قائلا :

— لا تقولى هذا مرة أخرى .

— حسناً .. لن أفعل ، ولكننى أريد أن أعرف .

— اعرفى إذن شيئاً واحداً ، وهو أنك تعيشين فى دمى وعروقى ، وما دام فى جسدى عرق ينبض ، فسيبقى حبك متأججاً فى قلبى وأعماقى .

جذبها من يدها ليستكملا طريقهما ، إلا أنها عادت تستوقفه ، قائلة :

– هناك شئ آخر ، أريد منك أن تعرفه قبل الزواج يا (وليد) .

– ما هو ؟

– سبق أن أخبرتك أننى أخترت أن أكون فدائية ، وواجبى تجاه قضية وطنى لن يقل عن واجبى نحوك كزوجة ، وأريد منك أن تفهم ذلك جيداً .

– أفهم وأوافق عليه ، والآن هيَّا ؛ لنلحق بالشيخ (سالم) ، والحاج (نور الدين) ، قبل صلاة العصر .

انطلقا يركضان مرة أخرى ، وقد احتوتهما السعادة هذه المرة ..

السعادة الحقيقية ..

* * *

عادت الدفوف تدق ، وعادت الزغاريد تنطلق وسط المخيم ، الذى فاح منذ أيام برائحة الموت ، واحتشد سكانه وسكان البلدة ؛ ليشهدوا زواج (وليد) و (سلمى) ، وأحاط الرجال بالعروسين ، فى دائرة كبيرة ، وكل منهم يلف ذراعه على كتف رفيقه .

ويدورون فى واحدة من الرقصات الفلسطينية الشعبية ، وجاء العشرات من مصابى الغارات الإسرائيلية ، على الرغم من إصاباتهم ، ليشهدوا حفل الزواج ، ويباركوا العروسين ، وشارك الشيخ (سالم) والحاج (نور الدين) الرجال رقصاتهم ، وقد أطلقت الفرحة كل مرحهم وسعادتهم ..

كان من المستحيل أن يصدّق أى مخلوق أن هذا المخيم قد شهد مذبحة دامية ، أسفرت عن مئات القتلى والجرحى ، منذ أيام ، فقد كانت مظاهر الفرحة والغناء والطرب ، فى كل ركن فيه ، هى أكبر تحد لليأس والموت والدمار ، التى خلفتها المذبحة ..

وتأمل (وليد) عروسه ، وقد تأبطت ذراعه ، وقال فى حب وإعجاب :

– كم أنت جميلة .

ضحكت قائلة :

– وخطيرة .. فلقد تزوجت فدائية ، ولا تلوم إلا نفسك .

قرّب وجهها إليه ، وهو يقول :

— دعينى أرى جمال وجهك .

وتأملها فى هيام ، وهو يستطرد مداعباً :

— أعتقد أن الأمر يستحق المخاطرة ، فأنت أجمل فدائية رأيتها فى حياتى .

اندفع نحوهما بعض المدعوّين ، وجذبوهما لمشاركتهم رقصاتهم ، و (سلمى) تشعر بسعادة جمة ، لم تشعر بمثلها من قبل ، جعلتها تنسى أنها تدفع بنفسها فى طريق يخالف ما تتمناه كل فتاة عادية ، من الحب والزواج والاستقرار ، فقد وهبت نفسها للكفاح ، ومشاركة الرجال نضالهم ضد العدو الصّهيونىّ ..

اختارت هذا الطريق يوم قـُتل أخيها وأمها برصاص الإسرائيليين ، فى واحدة من غاراتهم البربرية ..

اختارته ، وهى لا ترى طريقاً سواه ..

لم تتخيّل نفسها يوماً فى ثوب العرس الأبيض المطرّز ، تتأبط ذراع عريسها ، بمثل هذه الفرحة الغامرة ..

ولكن (وليد) جاء ..

جاء ليغيّر أفكارها ، حاملاً حبه ، وسط ذكريات طفولة بعيدة ..

جاء يوقظ داخلها تلك المشاعر والأحاسيس ، التى تصورت أنها لن تـَقرَب حياتها أبداً ، فإذا بها تحيا معه أحلام الشباب ، وأمانى العمر ..

حينما التقت به ، بعد غياب طال ثمانى سنوات ، تمنت أن تأتى هذه اللحظة ، التى تتأبط فيها ذراعه ، وهى ترتدى ثياب العرس ..

إن حبها لـ (وليد) جعل (سلمى) الفدائية الثائرة تفسح طريقاً لـ (سلمى) المحبة العاشقة ..

ولمح (وليد) عدداً من رجال المقاومة الفلسطينية وسط الحفل ، فجذبهم إلى حلقة الرقص ، ووقف أحدهم ينشد الأغانى الفلسطينية ، وكأنما يؤكد أن المقاتلين ، الذين فرض عليهم الغزاة حمل السلاح ، يجيدون أيضاً الرقص والغناء ؛

واتجه الموكب من المخيم إلى منزل الشيخ (سالم) ،

فى بهاء لم يعرف الجنوب مثله من قبل ، وبدا وكأنه يغسل أحزان الموت من كل بقعة يمر بها ، ويقيم مكانها نصباً للحياة والإرادة ..

وأخيراً وصل (وليد) و (سلمى) إلى منزلها ، وسط التهليل ، ودعوات السعادة والهناءة ..

وفى حجرتهما ، رفع (وليد) (طرحة) الزفاف عن وجه (سلمى) ، وقال بعينين يلتمع فيهما بريق السعادة :

– أخيراً يا (سلمى) تحقق الحلم .. أنت الآن زوجتى ..

غمغمت فى مزيج من الخجل والسعادة :

– نعم يا (وليد) .. تحقق الحلم ..

* * *

١٠ – دعنى أرحل ..

سقط ضوء القمر على وجهها النضر ، فكشف عن تعبير ، هو كل الحزن ، جعل (وليد) يهمس فى قلق :

– (سلمى) .. ماذا بك ؟

لاذت بالصمت ، وهى تتطلع إليه بعينين ملؤهما الألم ، فعاد يقول فى لوعة :

– أتحزن عروس إلى هذا الحد ، بعد عشرة أيام فقط من زواجها من شاب تحبه ؟

أجابته فى صوت خافت متوتر :

– علّنى استطعت إسعادك طوال هذه الأيام العشرة .

ابتسم قائلا فى حنان :

– حبيبتى .. كل لحظة أقضيها معك هى كل السعادة . ولكن ذلك الحزن المطلّ من عينيك يقول إننى أنا فشلت فى إسعادك .

تطلعت إليه بنظرة حانية ، وهى تقول :

– لم أكن أطمع فيما يفوق هذا سعادة .. لقد

غمرتنى بحبك وحنانك على نحو جعلنى أتشبث بالحياة ، وأنا التى كنت أستهين بالموت .

ضمها إلى صدره ، فألقت رأسها على كتفه ، وهو يقول :

– لماذا كل هذا الحزن إذن ؟

انسالت دموعها على كتفه ، وهى تقول :

– لأننى أصبحت أخشى أن أفقدك .. لم تعد لى تلك العزيمة القوية ، التى تجعلنى أستهين بالموت والحياة ، بعد أن صرت جزءاً من حياتى .. إننى أخشى الموت ، لأنه سيحرمنى رؤيتك .

اضطرب لكلماتها ، فتطلّع إلى وجهها ، وهو يسألها فى قلق :

– ما الذى دفعك إلى هذا القول ؟

أجابته ، وهى تشيح بوجهها عنه :

– سأشارك فى إحدى عمليات المقاومة فجر اليوم .

انتفض فى جزع ، وهبَّ واقفاً ، وهو يهتف :

– لِمَ لم تخبرينى بهذا من قبل ؟

– خشيت أن تشاركنى الخوف والقلق ، فلقد علمت بالمهمة منذ ثلاثة أيام ، ولأول مرة أخشى الموت ..

هتف معترضاً :

– لن أسمح لك بالذهاب يا (سلمى) .

– لا أستطيع .. إنه واجبى الأول ، ولقد نبهتك إلى ذلك منذ البداية .

– ولماذا أنت بالذات ؟ .. هنا العشرات من رجال المقاومة ، فما حاجتهم إلى عروس مثلك ؟

– أنا التى طلبت ذلك ، فهذه العملية هى عملية الثأر ، التى أعددناها ردًّا على غارات العدو الصّهيونىّ على مخيم الجنوب ، التى راح ضحيتها مئات الأطفال والنساء والشيوخ ، وما زالت ذكراها باقية فى أجساد الجرحى .. إنها العملية التى ستثبت للعالم أجمع أن إرادتنا لم تمت ، وأن تصميمنا على القتال والنضال باق ، لن يقتله قصف أو عدوان ، ولن أتخلى عن مثل هذه العملية أبداً .

— ولكن يا (سلمى) ..

— لا تحاول الاعتراض .. أرجوك .. دعنى أحتفظ بتلك الصورة ، التى رأيتك عليها ، يوم حدثتنى عن التحدى ومواجهة الموت .. دعنى أحتفظ بصورة الفخر ، وأنا فى طريقى إلى هذه العملية .

— هل تتصورين أننى مستعد لأن أفقدك ، مهما كان الثمن ؟

— إنها ليست عمليتى الأولى ، ومن يدرى ؟ .. ربما طال بى الزمن ، حتى أصير جدة عجوزاً .

قالت عبارتها الأخيرة فى صوت عجز عن إقناعها هى ؛ لأن غريزتها كانت تؤكد لها أن شيئاً ما سيحدث ، وأن هذه العملية بالذات لن تنتهى على خير حال ، كمعظم العمليات السابقة .. كانت تشعر بخوف لم تشعر بمثله من قبل ، ولكنها لم تسمح له بإثنائها عن إصرارها وعزيمتها ، حتى حينما قال (وليد) فى ضراعة :

— (سلمى) .. إننى لا أحتمل حتى رؤيتك تتألمين ، فكيف تطلبين منى أن أحتمل مشاركتك فى

عملية فدائية ، يحيط بها الموت من كل جانب ؟

— تذكَّر يا (وليد) حبنا المشترك ، ذلك الحب الذى ألف بين قلوبنا ، ومزج مشاعرنا .. إننى ذاهبة من أجل هذا الحب .. من أجل الوطن الذى عشقنا ترابه ، من أجل الشعب الذى دمرت أحلامه .. لا تجعل حبنا الصغير يحوِّلنا إلى أنانيين ، ويلهينا عن حبنا الكبير .

استسلم (وليد) لمنطقها فى يأس ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يخرج إلى الشرفة ، رافعاً رأسه إلى السماء ، ولحقت به (سلمى) ، وأسندت رأسها على ظهره ، وهى تحيط وسطه وصدره بساعديها ، قائلة :

— لا يا (وليد) .. لا تشيِّعنى بدموع يأس وحزن .. امنحنى ابتسامتك قبل رحيلى .

التفت إليها ، واحتواها بين ذراعيه ، وهو يقول :

— سأنتظرك يا (سلمى) .. احرصى على حياتك

من أجلى ، ومن أجل أبنائنا القادمين .. لا تجعلينى أفقدك ، فأفقد ذاتى ، التى وجدتها فيك .. أرجوك يا (سلمى) .

التصقت به ، وهى تخفى دموعها ، قائلة :

— سأحاول بقدر استطاعتى يا حبيبى ، ولكن عدنى أن يبقى (وليد) ملتصقاً بجذوره دوماً ، دون أن تحطمه الأحزان ، أو ينبت فى نفسه اليأس ، لو شاء الله أن ألقى مصرعى .. تذكر أن زواجنا كان تحدياً لليأس ، ولا ينبغى أن يكون موت أحدنا استسلاماً له .. يجب أن نظل أقوياء ، مهما كانت الظروف والعقبات .

أجابها فى صوت متهدج :

— أعدك يا حبيبتى .. أعدك ..

* * *

وقف قائد المجموعة الفدائية يشرح تفاصيل العملية قائلا :

— لقد دمر العدو أجزاء من المخيمات الفلسطينية ، وقتل وأصاب المئات من المدنيين العزل ، وسنثأر منه

بأسلوب مشابه ، ولكننا سنوجه ثارنا إلى إحدى معسكراته الحربية ، وعلى وجه التحديد ذلك المعسكر قرب الحدود ، الذى تنطلق منه معظم وحداته العسكرية ؛ لتنشيط جيوب المقاومة فى الجنوب ، ولكى يكون للثأر معناه ، ينبغى أن تكون خسارة العدو فادحة ..

وسيتولى (أبو عزام) قيادة واحدة من سيارات العدو ، استولينا عليها فى عملية سابقة ، وداخلها شحنة ناسفة من المتفجرات ، وستعمل مجموعتنا ، مع عدد من المجموعات الفدائية الأخرى ، على مناوشة دوريات العدو المسلحة ، التى تحيط بمنطقة المعسكر ، وإطلاق النار على جنود الحراسة ، والأبراج ، فى اللحظة التى تصل فيها السيارة إلى هناك ، وهكذا سنشتت انتباه الجنود ، حتى يصل (أبو عزام) بسيارته إلى أقرب مدى ، فيقفز منها ؛ لتواصل هى اندفاعها داخل المعسكر ، ثم يضغط جهاز التفجير ، فتنفجر السيارة داخل المعسكر ، وتدمره بمن فيه ..

هذا هو ملخّص خطة الهجوم ، التى أطلقنا عليها اسم الإرادة ، وأنتم تعلمون خطة العودة .

ثم تطلّع إلى وجوههم ، وهو يقول :

— هل الجميع مستعدون ؟

أشار كل منهم باستعداده ، وحملت (سلمى) سلاحها ، وغطّت وجهها بغطاء الرأس الفلسطينى ، وتأهّبت للقاء العدو ..

* * *



١١ — الحب الأكبر ..

استوقفت إحدى نقاط التفتيش الإسرائيلية السيارة العسكرية ، على بعد عشرة أمتار من المعسكر الإسرائيلى ؛ للتحقق من هُوِيَّة راكبيها ، وما أن هدّأت السيارة من سرعتها ، حتى قفز من داخلها ثلاثة عشر فدائيًّا فلسطينيًّا ، أخذوا يطلقون نيران مدافعهم الرشاشة وقنابلهم اليدوية ، على ضباط وجنود نقطة التفتيش ، فى نفس اللحظة التى انقضّت فيها مجموعتان أخريان على جانبي المعسكر ، وأطلقتا نيران مدافعهما بدورهما ؛ لتشتيت الانتباه ، فى حين اندفع (أبو عزام) بالسيارة نحو بوابة المعسكر ، مع المجموعة الباقية من الفدائيين ..

وقبل أن تصل السيارة إلى البوابة ، فتح عليها الجنود الإسرائيليون نيران مدافعهم ، فقفز منها رجال المقاومة الباقون ، ودارت بينهم وبين الإسرائيليين معركة حامية الوطيس ، على حين واصل (أبو عزام) انطلاقه بالسيارة ؛ ليخترق البوابة ..

ولكن رصاصات الإسرائيليين نفذت من زجاج

السيارة الأمامى ، إلى رأسه وجسده ، فتهاوى أمام عجلة القيادة ، مضرَّجاً فى دمائه ، وألقى أحد الفدائيين قنبلته على برج الحراسة ، الذى أصابت رصاصاته (أباعزام) ، فدمره ، فى حين اندفعت (سلمى) نحـو السيارة ، وأزاحت جثة (أبوعزام) ، واكتسى وجهها بكل الصرامة والعزم ، وهى تنطلق بها نحو المعسكر ، وحينما وصلت بها إلى مسافة كافية الثخنت ؛ لتلتقط جهاز التفجير من أسفل مقعدها ، وهى تتأهب للقفز من السيارة ..

ولكنِ رصاصات العدو أصابت كتفها وذراعيها بلا هوادة ..

ولم تبال (سلمى) بآلامها ..

لم تبال بالدماء التى تسيل فى غزارة ..

لقـد انحصر كل تفكيرها ، وانحصرت كل مشاعرها فى التقاط جهاز التفجير ، ونسف الشحنة ..

وحينما اعتدلت وهى تمسك بجهاز التفجير ، رأت من الزجاج المحطم عشرات الجنود الإسرائيليين ، وهم يندفعون نحوها بأسلحتهم ، ويطالبونها بالاستسلام ..

وتداعت فى رأسها — فى لحظة واحدة — عشرات الصور والمشاهد ، فى سرعة عجيبة ..

صورتها وهى بعد طفلة تشارك (وليد) لهوه ومرحه ..

صورتها صبية ، قتل شقيقها وأمها أمام عينيها ، برصاص الإسرائيليين ..

صورتها وهى تصدم (وليد) بدراجتها ، بعـد غياب ثمانى سنوات ..

مشهد قصف الطائرات الإسرائيلية لمخيم الجنوب ..

مشهد جثث القتلى ، وأنين المصابين ..

صورتها وهى تشارك (وليد) الرعاية والعنـاية بالجرحى ..

صورتها مع (وليد) على التل ، وهو يهتف :

أحبك .. أحبك .. أحبك ..

صورة زفافهما ، ومظاهر الفرح والبهجة ..

وأخيراً صورتها ، وهى بين أحضانه منذ ساعات ..

وسالت الدموع من عينيها ، وهى تهمس :

— سامحنى يا (وليد) .. سامحنى يا حبيبى .. لن

يمكننى أن أفى بوعدى ، فحبى الأكبر ينادينى .

أحاط الجنود الإسرائيليون بالسيارة ، وعادوا يهددونها ويطالبونها بالاستسلام ، فهمست فى حزم :

— من أجلك يا وطنى السليب أدفع حياتى وحبى ..

ثم هتفت من أعمق أعماق نفسها :

— الله أكبر .. فلسطين عربية ..

وضغطت زر التفجير ..

* * *

وقف العشرات من السكان والأهالى عند مدخل المخيم ، فى الساعات الأولى من الصباح ، يرقبون عودة رجال المقاومة ، وبينهم وقف (وليد) ، والخوف والقلق يعصفان به ، وحزن عجيب يطبق على صدره ، مع هاجس عجز عن طرده ودفعه ، وهو ينتظر عودة (سلمى) ..

تُرى هل تعود إليه ؟ ..

إنه يعجز حتى عن تصوُّر فقدها ..

وخفق قلبه فى قوة رهيبة ، حينما لمح ثلاثة من رجال المقاومة يهبطون التل ، نحو المخيم ، ورأى سكان

المخيم يندفعون إليهم ، ويحيطون بهم ، دون أن يسألهم أحدهم عن مصير الباقين ..

السؤال الوحيد الذى تردد هو : هل تمت العملية بنجاح ؟ ..

واندفع (وليد) يشق طريقه بين السكان ، وسؤاله المخيف يتردد فى عقله ، وينبض مع قلبه ، وهو يخشى إجابته لو طرحه ، وعندما وصل إلى حيث يقف رجال المقاومة الثلاثة ، جمدت تلك النظرة الحزينة الدامعة ، التى تطلعوا بها إليه ، فلم يقو حتى على طرح سؤاله ، وهو يشعر بأطرافه ترتجف ، وبقلبه ينبض فى عنف ، وكأنه ينتحب ، حتى اقترب منه أحد الفدائيين ، وربَّت على كتفه ، وهو يقول فى حزن :

— البقاء لله يا ولدى .. لقد استشهدت (سلمى) ، بعد أن قامت بعمل بطولى ، يعجز عشرات الرجال عن أدائه .. لقد ضحت بحياتها ، ونسفت السيارة وهى داخلها .

تجمدت مشاعر (وليد) ، وتحجرت الدموع فى عينيه ، والرجل يستطرد فى فخر :

– لقد تطوّعت (سلمى) لأداء هذه العملية ، دون أن يطالبها أحد بذلك .. لقد قدّمت للتاريخ العربى والفلسطينى والدولى مثالا للبطولة والتضحية والفداء ، وإرادة الشعوب المحتلة ، وإصرارها على البقاء .. رحم الله زوجتك يا (وليد) ، وأسكنها فسيح جناته ..

ارتجف جسد (وليد) ، وتفجرت أحزان صامتة فى أعماقه ، وسمع صوت الحاج (نور الدين) من خلفه باكياً ، وهو يقول :

– حمداً لله على كل مكروه .. رحمك الله يا بنيتى.

ولكن (وليد) لم يبك ..

كانت أحزانه قاسية ، عنيفة .. بلا دموع ..

لقد حُرم حتى رؤية جثمانها ..

انصرف الحشد من حوله ، وبقى هو جامداً كتمثال من حجر ، فاقترب منه والده ، وهو يقول :

– هيّـــا يا ولدى .. انفض أحـــزانك .. إنها إرادة الله ..

ولكن (وليد) لم ير ، ولم يسمع ..

كانت تلحّ على رأسه فكرة واحدة ..

سيحقق وعده لـ (سلمى) ..

سيقاوم اليأس والأحزان ..

وسمع والده يقول :

– عزاؤنا أنها قد ماتت شهيدة يا ولدى ، ولن تذكرها وحدك .. سيذكرها شعبها كله ، الذى ضحت بحياتها من أجله ..

وفى أعماقه عاد يهتف بأنه سيقاوم ..

سيقاوم .. سيقاوم ..

* * *

مضت خمسة عشر يوماً على وفاة (سلمى) ، حينما تسلم (وليد) خطاباً من (القاهرة) ، أرسله إليه أحد زملائه ، ينبئه فيه بأن كل أوراق الهجرة إلى (أستراليا) قد تمت ، وأن ترتيبات استقباله هناك قد أُعِدَّت ، ويذكر له فيه كل مزايا العمل فى المستشفيات الفاخرة ..

وقرأ (وليد) الخطاب مرة واحدة ، ثم مزّقه ، وألقاه بعيداً ، فلم يعد يرغب فى الهجرة ..

لقد أدرك هدفه وطريقه ..

وفى فجر اليوم التالى ، هاجمت مجموعة من الفدائيين دورية إسرائيلية ، وأبادتها عن آخرها ، وكان أحد أفراد هذه المجموعة يقاتل فى حماس وإصرار شديدين ..

وحينما سقط غطاؤه عن وجهه ، انكشفت ملامح شديدة العزم والإرادة ..

ملامح (وليد) ..

لقد حمل سلاحه ليقاتل فى سبيل وطنه ..

إنه واحد من شعب لا يعرف اليأس ، ولا يتوقف عن النضال ، من أجل استرداد وطنه ..

لقد جاء من أجل حبه لـ (سلمى) ..

من أجل الحب الأكبر ..

حبه لوطنـــه ..

وعندما تنفس هواء (فلسطين) ، وقبض بيده حفنة من ترابها ، أدرك قيمة التضحية التى بذلتها (سلمى) ..

وأدرك قيمة الحب ، الذى جاء ليناضل من أجله .

* * *

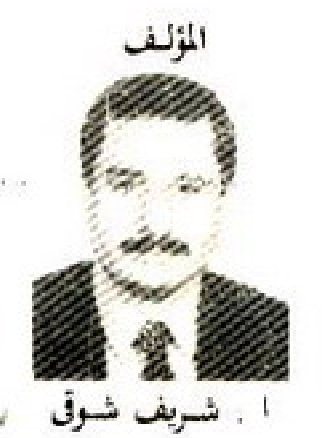
(تمت بحمـــد الله)

رقم الإيداع : ٧٨٤٨

رومانسية رفيعة المستوى



المؤلف



أ. شريف شوق

السلسلة الوحيدة التى لا يجد الأب أو الأم حرجًا من وجودها بالمنزل



حب وسط النيران

فى ربوع لبنان ، نبت الحب
بين قلبى (وليد) و (سلمى) ..
حب نبت بعيدًا عن وطنهما
(فلسطين) .. حب يقاتل ليفوز
بالقلوب .. ليسترجع الوطن
والحرية .. إنه حب
وسط النيران ..

الثمن فى مصر
ومايعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم